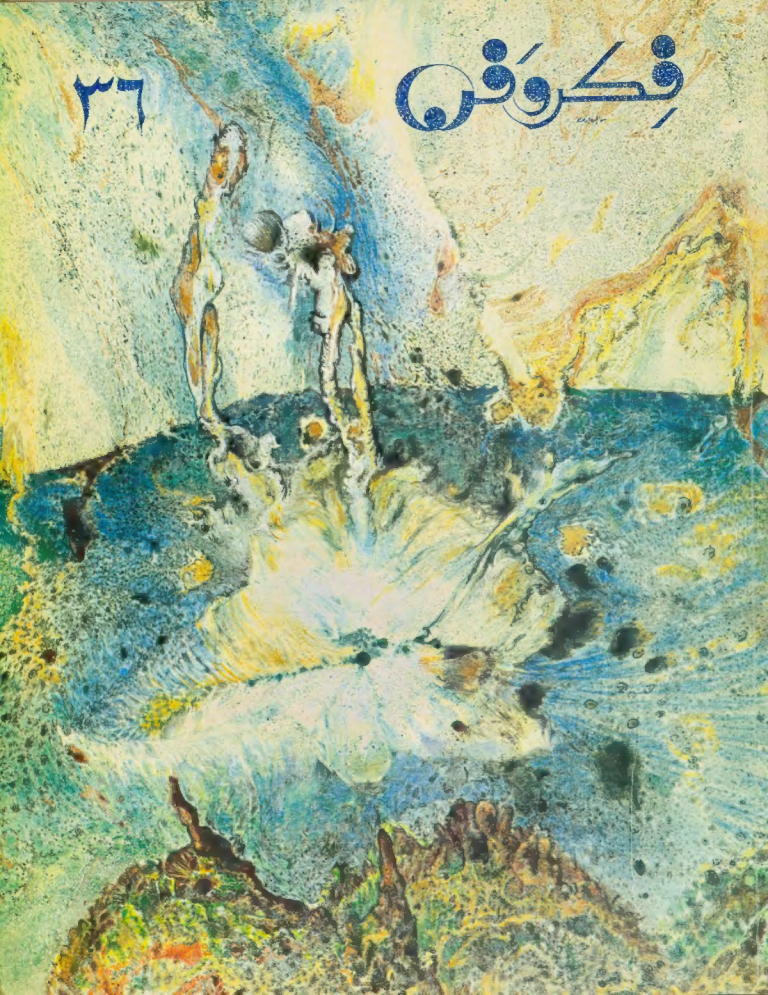


۳۶

فکر و فن



Beim Tag, der steigt!
Und bei der Nacht, die schweigt!
Verlassen hat dich nicht dein Herr, noch dir sich abgeneigt.
Das dort ist bessert, als was hier sich zeigt.
Er gibt dir noch, was dir zu deiner Lust gereicht.
Fand er dich nicht als Waisen, und ernährte dich?
Als irrenden, und führte dich?
Als dürftigen, und mehrte dich?
Darum den Waisen plage nicht,
Dem Bittenden versage nicht,
Und deines Herren Huld vermelde!

وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ

وَمَا قَلَىٰ ۝ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَ

لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝

FIKRUN WA FANN



Herausgeber: Annemarie Schimmel und Albert Theile,
in Verbindung mit Arnold Hottinger



دوريات إهداء

تصدرها أنا ماري شيميل وألبرت تايله
بالاشتراك مع أرنولد هوتنجر

٥٤ ولقناتج هاوسمان ، نظرة على قضايا الطب الحديث
ومشاكله

Wolfgang Hausmann, Ein Blick auf die Problemfelder der modernen Medizin

٢ Wiebke Walter, Das Bild der Frau in Tausendundeiner Nacht

٦٦ الانسان والحصان Mensch und Pferd
هلמות فون مولتكه ، العربي وفرسه

Helmuth von Moltke, Der Araber und sein Pferd

٢٢ جان ماريك ، الشعر الأوردي للمعاصر
تصوير الواقع في شعر فيض أحمد فيض

Jan Marek, Die Darstellung der Realität in der Urdu-Dichtung von Faiz Ahmad Faiz

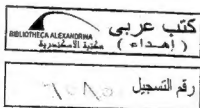
٧٦ هانز روبرت رومر ، ريشارد هارتمان ،
بمناسبة مرور مائة عام على ميلاده

Hans Robert Riemer, Richard Hartmann.
Anläßlich seines hundertsten Geburtstages

٣٢ ياتوس ريسز ، نظرة على الأدب في السنغال
János Riesz, Einblicke in die senegalische Literatur

٤٧ بنو إكمان ، الرياضيات في العصر الحديث
Benno Eckmann, Mathematik heute

٨٢ مفكرة ثقافية Kulturechronik



صورة الغلاف :

من تصميم وتنفيذ كوت ليزه .

يقدم الناشر وداع البشر شكرها لكل من ساهم بموئنته في إهداء هذا العدد .

إدارة التحرير : Adresse der Redaktion: Albert Theile,
CH 3027 Berne, Postfach 83, Switzerland

دار النشر : F. Bruckmann Verlag, D-8 München 20,
Postfach 27, Bundesrepublik Deutschland

تظهر مجلة «فكر ونفن» مؤقّات مرتين في السنة .
الاشتراك : ٢٨ مارك ألماني ، - نسخة واحدة : ١٤ مارك ألماني ؛
تفويض الاشتراك للطلبة : ٥٠ في المائة .
تقدم طلبات الاشتراك إلى دار النشر .

الطباعة : F. Bruckmann KG, Graphische Kunstanstalten, München

صف الحروف : Orient-Satz Berlin

١٩٨١ ، حقوق النشر : ألبرت تايله ، برن ، سويسرا ، و. ف . بروكمان ، ميونيخ .

فيكه فالتر

صورة المرأة في ألف ليلة وليلة

وجاء في حكاية أنه لا تُقرأ قصة من القصص إلا «عند
الأمراء والملوك والوزراء وأهل المعرفة من المفسرين
وغيرهم» .

ولكن لا تجوز روايتها على قارعة الطريق أو بمحضر
النساء ، والجواري والعبيد والسفهاء والصبيان (٥٩٤/٣) .
وهذا يعني أنه كان هناك ثمة تصور لأفراد الصفوة
المتأخرة في المجتمع ، وإن المرأة قد استُعبدت من هذه
الصفوة أصلاً . ونظراً إلى أن مجموعة ألف ليلة وليلة -
شأنها في ذلك شأن حكايات الأخوين جرم في المانيا -
لا يعرفها كثير من الناس إلا في طبعات مختصرة
أو مبهّدة ، فإن عامة القراء لا يعرفون تلك الأقوال
المشار إليها آنفاً بقدر معرفتهم لشخصية شهرزاد
الحكيمة ، التي تنتصر بجلوديتها وسحر حكاياتها على
ما يُضمره الملك شهريار من عداوة للنساء بلغت حد
المرض العُضال .

وما يروى عن الوزير البرمكي الحسن بن سهل أنه قال
ما معناه أن البراعة والتفنن في قصص الحكايات ليست
بمجرد واحدة من فضائل الأدب والتربية في قصر
الخليفة ، وإنما هي رأس فضائل الأدب^(١) . فلم يكن
يُبد إذن من إجادته فن الحكاية وإحكامه لمن شاء أن
يُقلد المناصب العالية في قصور الخلفاء^(٢) . ونحن ندين
للأدب الشعبي بأنه بين لنا أن من النساء أيضاً من
برعن غاية البراعة في هذا الفن .

ومن المعلوم اليوم أن القصة الحارجية في ألف ليلة وليلة ،
أعني بذلك قصة شهرزاد وشهريار ، هي من أصل
هندي . إن ألف ليلة وليلة مجموعة من عناصر مختلفة

إعص النساء قتلن تلك الطاعة الحسنّة
فلن يغور فنّ يعطى النساء رنّته
يُعقّن عن كمال في قصائله
ولو سقى طالباً للعلم ألف سنّه

إن النساء هي طالين خلُفن كنسا
أعوذ بالله من غيد الشياطين
ومن بهن رماه المصطفى فينبئنا
قد سبّح الحزم في ديبا وفي دين
ج ١٠٤ ص ١٠٩ (١) . .

وردت هاتان القطعتان من الشعر في حكايتين مصريتين
متأخرتين من حكايات ألف ليلة وليلة . ويكاد أول
أبيات القطعة الثانية أن يطابق في معناه قولاً للأديب
الباقاري وأمين البلاط Aegidius Albertinus (الذي
عاش من ١٥٦٠ إلى ١٦٢٠) . يقول ألبيرتينس : «المرأة
آلة وأداة طيعة في يد الشيطان ؛ بها جلب إلى العالم كل
الشُرور والآثام ، وبها جعل كثيراً من عقلاء الرجال
وأقبايهم مجانين فاسقين ، إنها لثيمة وضعية ، ولذا فهي
تسبّح وحى الشيطان ، وتقرن نفسها بارادته ، وتحرك
العزّاب إلى الشهوة والشّق . . الخ»^(١) .

وكما نستطيع أن نضم إلى أقوال هذا الأديب الباقاري ،
الذي يمثل المناهضين لحركة الإصلاح الديني ، كثيراً
من الآراء المشابهة التي صرح بها معاصروه حول «المرأة
الشريرة المتقلبة» ، فأننا نستطيع أيضاً في يسر أن
نجمع من ألف ليلة طائفة من الأحكام المعادية للمرأة .
ففيها يرد ذكر «غفلة النساء وسخافة عقولهن وسوء
تدبيرهن (١٦٢/٧/٢) . بل يُنسب فيها إلى الأمام عليّ
أنه أوصى المسلمين قائلاً : «إنقروا أشرار النساء وكونوا
متين على حذر ولا تشاوروهن في أمر ولا تُضيقوا
عليهن في معروف حتى لا يطمعن في المكر»
(٤٣١/١) .



أميرة جالسة تحمل زهرة في يدها . منمنمة فارسية . أسلوب تيريز . متحف الفنون بجامعة هارفرد . كمبريدج . الولايات المتحدة الأمريكية . هدية من جون جوليت .

طبقات من الناس ، كان يُنظر إليهم في شيء من استخفاف .

ومن المؤكد أن العدد «ألف» في تسمية هذه المجموعة المشار إليها ، قد قصد به أولاً الإشارة إلى طائفة كبيرة تفوق العد ولم يقصد به معناه الحرفي . وفي عصر لاحق تطور عنه العنوان العربي «ألف ليلة وليلة» ، ولعل السر في زيادة «ليلة» على الألف هو نوع من التطير أو الخوف من العدد المُقفل . وقد يحتمل أيضاً أن يكون العدد «ألف وواحد» في هذه التسمية من تأثير اللغة التركية التي نلحج آثارها في بلدان الخلافة ابتداء من القرن الخامس الهجري وبيان ذلك أن العدد «ألف وواحد» في التركية [بن بر] ، وفيه جناس استهلاكي ، يُفيد مجازاً كثرة العدد ، أو المبالغة في الكمية . على أن الناس قد أخذوا من بعد يتسكون بالمداول الحرفي لهذا العدد . وفي ذلك العهد كانت مجموعة «ألف حكاية» الفارسية قد عُثيت بحكايات بندقية ، ثم أُضيفت إليها من بعد حكايات قاهرة . والمجموعة معروفة هنا من القرن الثاني عشر للميلاد . ويظهر للوهلة الأولى أنه قد أدخلت إليها في القاهرة حكايات طريفة عن الخليفة هارون الرشيد الذي لم يكن عهد حكمه مثالي على الإطلاق كما يحلو للقرون المتأخرة أن تصوّره .

ولم تعرف حكايات ألف ليلة وليلة نفسها الطريق إلى القاري الأوروبي ، إلا بعد أن أصدر العلامة الفرنسي الذي زار الشرق François Galland (١٦٤٦ - ١٧١٥) ترجمة لها لأول مرة في لغة أوربية ؛ فأنارت في الأذهان بروعتها وبهجتها صور الكنوز المتألفة بجواهرها ، والخوريت الحسن ، وعفاريت الجن بشاعة صورهم وإن لم يكونوا دائماً أشراراً ، وعجائب المصنوعات السحرية التي تبدل من عسر الحياة يسراً ، مثل بساط الريح ، والحصان الطائر ، والمصباح السحري . ونسيجت في خيال القاري المبهور صورةً بديعةً للشرق . إلا أننا نعلم منذ أبحاث

ومركبة من طبقات متعددة على بعضها بعضاً - شأنها في ذلك شأن الثقافة العربية الإسلامية إجمالاً في العصور الوسطى - ولذلك فإن هذه المجموعة ليست خلواً من المتناقضات . لقد أثرت فيها طائفة من أقطار الشرق الأدنى ، هي الهند وفارس والعراق والشام ومصر وتركيا . ويتبين الخبر ذلك من خلال الأسماء التي ترد فيها . والرباط الذي يجمع بين كل هذه العناصر هو اللغة العربية ، التي رويت لنا فيها هذه الحكايات ، ثم ما ساء إنا لثمن - أشهر مترجي هذه المجموعة إلى الألمانية - «بالصيغة الإسلامية» من حمد الله «العلي القدير» ، والأشارة إلى قضاء أو قدر محتوم لا مفر للانسان منه .

وتخبرنا مصادر عربية ترجع إلى القرن العاشر للميلاد ، أولها «مروج الذهب» للمسعودي ، ومن بعده بعدة عقود «الغبرست» لابن النديم ، أنه عُرف^(١) حوالى ذلك الوقت في بغداد مجموعة حكايات فارسية الأصل ، اسمها «هزار آفسانه» أي «ألف حكاية» . وهي تشتمل على جزء من القصة الخارجية ؛ وخلصتها أن ابنة أحد الملوك ، واسمها شهر زاد ، قد حالت برباعتها في رواية الحكايات بين زوجها الملك وبين قتلها بعد ليلة الزفاف ، وهو ما جرت به عادته حتى ذلك الحين مع كل امرأة تزوجها . وفي ترفع العالم المنقطع واللغوي الجامد ، يُصدر حكمه فائراً على المجموعة ، فيقول : «وقد رأيته بتمامه دفعت وهو بالحقيقة كتاب نمث بارد الحديث»^(٢) .

غير أن حكمه هذا تفسره روح عصره . فقد كان ابن النديم ومعااصروه ومن خلفهم يقفون موقف الشك مما ينتجته الخيال الجامح ، لا سيما إذا لم يكن مصوغاً في القالب اللغوي الفصيح ولغة الأدب العالية المحكمة . لقد كان على الأدب أن يُمتنع الصفة المثقفة ويوسع من آفاقها ، وذلك عن طريق الفن اللغوي أولاً ، والاعتدال على استعمال التقاليد الماثورة وحذق الأساليب . أما الأدب الشعبي فكان مقصوراً على



الأميرة زين النساء ، بنت اورنگ زیب بادشاه ، تجلس في شرفة . جزء من منمنمة ، القرن التاسع عشر ، متحف لاهور .



الأميرة زين النساء . للمنمنمة كاملة .

بهر دل رو به سینه دل
 نو به نو به نو به نو
 چرخ لعل ز لب و کلام
 در کف دست بدر آید

بهر دل رو به سینه دل
 نو به نو به نو به نو
 چرخ لعل ز لب و کلام
 در کف دست بدر آید



بهر دل رو به سینه دل
 نو به نو به نو به نو
 چرخ لعل ز لب و کلام
 در کف دست بدر آید

شیرن نغمه دلکش میبالی
ز قولش به سوز اندر حبس میبالی
کف نیز به شیرن زبانی
ز شیرین باز گوید داستان میبالی



سختین بربد او رز بهشت
که به هم پیشتر زمین روزگاری
روای نغمه سازی پاز بهشت
دماغ آهسته در خند دای یاری

(خسرو و شیرین) مع عازقات الموسیقی .

من منظومه «خسرو و شیرین» للشاعر الایرانی نظامی .

طائفة من الحكايات الأسطورية ، فان منطقتي لذلك أن كل أسطورة تنطوي قليلاً أو كثيراً على عناصر من الواقع ، وكما أن الأسطورة قد تمكس الواقع فانها تبرز أيضاً عن أحلام الانسان وأمانيه في تخفيف أثقال الحياة وعنتها والوسائل التي يتخيلها لتحقيق ذلك .

لا أراني بحاجة الى أن أتحديث عن مكانة المرأة في الدين الاسلامي ؛ فقد ورد في القرآن (وللرجال عليهن درجة) [البقرة ٢٢٨] و(الرجال قوامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض ...) (النساء ٣٤) . إن أحكام القرآن التي لم يقصد بها أول الأمر (لأن النساء النبي ، وتبين أنه ينبغي لمن أن يحتجب إذا غادرن بيوتهن ليكرمن [الأحزاب ٥٩] ؛ أو إذا تحدثن إلى رجال لا تربطهن بهن قرابة ، فليكن ذلك من وراء حجاب [الأحزاب ٥٣] . إن نحو هذه الأحكام أصبحت فيما بعد قواعد عامة ، وباستحكام المجتمع الطبقي أفضت منذ القرنين الثاني والثالث الى المطالبة باستبعاد متزايد للمرأة من الحياة العامة ، وإلى اقتضاء تحجيب نساء الطبقة العالية والمتوسطة على الأقل ، وكذلك ما يتبعهن من الجوارى .

لقد نسب الامام الغزالي (المتوفي سنة ٥٠٥ للهجرة) الى النساء ، كل شرور العالم وبلایاه . أما القرآن ، فعلى العكس من ذلك لا يذكر شيئاً عن ذنب حواء باعتبارها أم البشر الأولى ، وأعني بذلك الذنب الذي نسبته كتاب العهد القديم الى المرأة وحدها وليس الى البشر مجلّة في إخراج الانسان من الجنة ، وما استتبع ذلك من النصب والعناء الملازمين لوجوده على الأرض . إلا أن هذا التصور لم يلبث أن انتقل من اليهودية والمسيحية الى العالم الاسلامي فيما بعد . ولقد جاء في كتاب «كنز العمال» للمفتي الهندي ، من أهل القرن العاشر للهجرة ، أنه : «لو أمرت أحد أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» .^(١)

بل انا نقرأ فيه أيضاً ما تمناه النفس : «ولو أن من قدم الى مفرق رأسه قرحة تبتجس بالقيح والصدید ثم أقبلت تلحسه ما أدت حقه» .^(٢)

Enno Littmann و Ostrup و Noideke وفي المقام الأول هذه المجموعة لا تشتمل على حكايات فحش ، وإنما تضم كذلك روايات عن المشق والفرسان والشطار ، وأقاصيص ، وخرافات ، وأساطير وثلج وطرائف . وليست الحدود بين هذه الأنواع قائمة ولا واضحة أحياناً .

ونشر في أوروبا على آثار للقصة الخارجية لألف ليلة في قصة من عصر النهضة في إيطاليا ، يرتقي تاريخها الى حوالي عام ١٤٠٠ للميلاد . على أن النصر الذي أحرزته هذه المجموعة بين الأدب الأوربية يرجع الفضل اليه الى ترجمة Galland ، إذ كان قصاصاً مطبوعاً وعبرياً في إعادة الأداء مع إحساس دقيق بما كان يهواه قراء ذلك العهد . فظهر من ترجمته اثنا عشر مجلداً فيما بين ١٧٠٤ و ١٧١٧ ؛ ولكن ظهور المجلدين الآخرين منها بعد وفاته . وكان Galland قد وقع أول الأمر على قصة السندباد البحري . ثم حشا المجلدات الأخرى بحكايات مستمدة من مخلوط يرجع تاريخه الى القرن الخامس عشر . ومن بعد ذلك بما رواه له شفياً وكتابة ماروني من أهل حلب . هذا ولم يمش الى اليوم على أصل بعض ما قدمه Galland الى القراء ، ولكنه نقل من ترجمته الى لغات أوربية أخرى ، ثم الى بعض اللغات الشرقية . على أن من أبناء الأجيال التالية لـ Galland من انتقد أسلوبه . ومن هؤلاء Gottlieb August Bürger ، وهو يعلن عن ترجمته التي كاد يعفيها النسيان ، فيذكر ترجمة Galland ويصفها بأنها «بضاعة جالان Galland العمياء البالية»^(٣) .

وفي الشرق ظهرت الطبقات الأولى من ألف ليلة وليلة بعد أن دخله فن الطباعة في الثلث الأول من القرن الماضي ؛ وتظهرنا هذه الطبقات على صورة لهذه المجموعة ، ترجع الى القرن الثامن عشر .

ولقد أبدى العلماء في أوروبا اهتماماً بهذا الكتاب فترة من الزمان ، بعد أن نبه J.G. Herder الأذهان في بداية القرن التاسع عشر الى قيمة الأدب الشعبي .

وانتي إذ أبحت فيما يلي عن صورة المرأة كما ترسمها هذه المجموعة ، التي تضم فضلاً عن الصور الواقعية للحياة اليومية

ولا شك في أن هذه الأحاديث موضوعة على الرسول ،
فهي لا تمثل إلا فكر واضعها أو تصور بعض أهل القرن
العاشر .

إن النظرة المُستأنية نوعاً ما في تاريخ البلاد الإسلامية
وحضارتها تبين لنا أنه كان ثمة دائماً نساء استطعن بما
تمتحن به من فتنة وسحر وجمال وما يطوئن عليه
من دهاء وحيلة أن يمارسن نفوذهن من وراء الحجب ،
بل استطعن في بعض الأحيان تولي شئون الحكم وإدارة
دقته . ومن الطبيعي أن كل أولئك النساء كن بنات
عصرهن وتواجه . فقد كن في الأغلب ربّات دسائس
ومكائد ، شأنهن في ذلك شأن الرجال الذين كانوا من
حولهن . ولولا أن الرجال كانوا أصحاب دسائس
ومكائد ، لما اضطرت النساء إلى أن ينجهن نهجهم .

لا غرو إذن أن يصبح كيد النساء موضوعاً أثيراً حبباً ،
ليس في ألف ليلة وليلة فحسب ، بل في كتب الأدب
أيضاً . فالمرأة الشقية ، والجارية الشققة ، وابنة الملك
الجميلة ، والشابة والمجوز ، وهذه أكثر من تلك ، كل
هؤلاء يتمتعن بصفة ، وهي أنهن صاحبات مكائد
وحيل يُدبرنها لنفع الرجال أو ضررهم ، بل أحياناً
لخير شعوب بأكملها أو لشرفها . ولذلك يجب على الرجل
أن يتيقن ويأخذ حذره منهن . جاء في حكاية الدليلة
المحتالة «أما قلت لك أن بغداد فيها نساء تلعب على
الرجال ؟» (٢٥٥/٣) .

ويبدو أن منشأ هذه الحكاية هو القاهرة ، ويمكن أن
تعتبر الدليلة هذه وابنتها زينب النصابة أنموذج لكيد
النساء في ألف ليلة وليلة ؛ بل لقد قيل عنها أن «وكان
إليّس يتعلم منها المكر» (٤١٧/٣) .

إنها تستخدم كيدها بمثابة سلاح اجتماعي ، ولكي
تفوز بمرکز أبيها المريح ، وقد كن مرمياً للحمام
الزاجل عند الخليفة ، تستغل سيدات المجتمع
البغدادي الراقي وساداته باصطناعا لسانين : «واللسان

ناطق بالتسبيح ، والقلب راغص في ميدان القبيح»
(٤١٨/٣) . وهي سريعة الخطا ، مأكرة ، ولكنها

نادراً ما تميت بأحد في شر مستعينة في ذلك بآخر .
ولبلاغة لسانها تغلت حتى من الصليب الذي ضلّبت
عليه عقاباً لما ما اقترفته من الخدع . وفي آخر الأمر ،
تحصل على منصب شرح آخر ، ليس على سبيل المكافأة ،
ولكن كي تكف عن تدبير مكيدة جديدة ، فتعين
بوابة ومشرفة على زهاء ٤٠ عبداً في خان الخليفة .

وكان الناس يجدون متعة ولذة فيما تصطنعه النساء من
المكائد لصعد عاشق ثقيل ، وذلك كما في قصة امرأة
التاجر التي كانت تعرف ، لتخلص حبيبها ، كيف تثير
الرغبة في المقدم ، ثم القاضي ومن بعد الوزير وأخيراً
الملك . فهي تدعوهم جميعاً إلى دارها ، واحداً بعد
الأخر في اليوم نفسه ، ثم تحسبهم في خزانة . وبرسالة
من المقدم تُطلق سراح حبيبها لتفر معه بالثياب النفيسة
لمعشاتها . أما أولئك الذين انطلعت عليهم حيلتها
فيتخلصون من حبسهم بعد أن كادوا يموتون جوعاً ؛
وعندئذ لا يسبهم إلا أن يضحكوا لهذه الخدعة
ولمحاتهم (١٥٨/٣ - ١٦٦) .

ويبدو أيضاً أن صنوف الحيل التي راوغت بها النساء
أزواجهن ليلتقين بمأشوق أو أكثر قد جعلت جمهور
المستمعين إلى رواة الحكايات يتيسمون ويتغامزون .
ويظهر لنا أن هذا السلوك ليس شائعاً ، إذ أن الزواج
كلن يتم غالباً لاعتبارات عائلية وليس على أساس
الموافقة الشخصية للزوجين ، ولا يبعد أن تكون عقوبة
الزنا الصارمة التي فرضتها الشريعة ، قد جعلت
المنوع يبدو مرغوباً فيه بنوع خاص .

إن أمثال هذه الحكايات وغيرها بما في كتب الأدب ،
يمكن أيضاً اعتبارها دليلاً على أن عزل المرأة عن الحياة
العامة لم يكن بنفس الصرامة في كل مكان وزمان ، كما
يصوره الرحالة الأوروبيون وكما تصوره كتب الأدب العربي
للمعاصر التي تصف مصر في مُستهل هذا القرن ، هذا على
الأقل بالنسبة للطبقات العليا والمتوسطة .

المتأخرة . من ذلك أن الصائغ البصري المعجوز يلوي عنق زوجته الشابة ، بعد إذ يكشف خيانتها له مع عشيقها الشاب الجميل ، الذي كان يعتبره صديقاً له . هذا وتلقى جاريتها المذنبه معها نفس المصير . أما عشيقها القاهري الأصل ، والذي شاركها راضياً كل مخازيها ، ثم انسحب أخيراً من الأمر في حين وعدم اكتراث ، فإنه لا يسلم من الأذى فحسب خلافاً لمشيخته ، بل إنه يكافأ بأن يتزوج فتاة أبرع حسناً وأكثر جمالاً ، هي ابنة شيخ الاسلام . وفي الختام يُقارن بين القاهريات والحسنة البصرية الخائنة ، ثم يثبت للقاهريات أنهن الممثلات الحقيقيات لأخلاق الزواج الاسلامي : «إن أبي لا زال يحكم عليّ ما دمت بكرًا وحيث تزوجت فقد صار الحكم كله في يد بعلي فاني لا أخالفه» (٦٢٩/٤) ، «ومن ظن أن النساء كلهن سواء فإن داه جنونه ليس له دواء» (٦٣٠/٤) .

وبهذا يختم القاصّ حكايته . ومع أنه يُخيّل إلينا أن القاصّ كان يحلو له أن يُسهب في تفاصيل الانحرافات الزوجية وأنه أراد بذلك أن يُلبي حاجة سامعية إلى شيء من الاثارة ، فإن القصة تسعى إلى أن تجد مُسوِّغاً ، ولا بد ، للموقف الاستبدادي للرجل المسلم في القرون المتأخرة .

ولعل السبب في كثرة عدد القصص الفكاهية التي تدور على عدم وفاء النساء هو الميل إلى التسلي ببراءة النساء في كيدهن ، وبالفكاهة اللاذعة في حد ذاتها : وذلك لأن المجموعة تشتمل أيضاً على قصص حول زوجات يُعتبرن نماذج للوفاء . فلدينا طريفتان مسليتان وكأنهما قصتان تعليميتان حل نساء ذكيات ، يحاول أحد الملوك أن يصل إليهن فيظنن له قُبْح فعله (٤٢٧/٢) وما بعدها ، ١١٧/٣٢ وما بعدها) . وفي قصة البدوي المُفتقر وامرأته الحسنة التي ينتزعها منه مروان ابن الحكم ، تثير الزوجة أيضاً إعجاب الخليفة الأموي معاوية إلى حد أنه يريد الزواج منها . ولكنها ترفض السلطان والثراء وتشبث بزوجها مُعللة ذلك

وإذا قرأنا في أحد المواضع من ألف ليلة وليلة أن : «وقد تعلمت القبح من أولاد مصر» (٢٣٤/١) وإذا جاء في حكاية زين الأضمان أنه «لم يستطع أن يعثر في القاهرة على فتاة بالغة العفة والحياء» (٢٣٩/٦) - والحكايَتان ترجمان فيما يُرجّح إلى عصر المماليك - ، فإن ذلك من باب المبالغة ، وإن كان لا بد أنها تنطوي على شيء من الحقيقة . لقد أدرج قسم من الحكايات حول الزوجات الخائنات في الاطوار الخارجي لقصة «كيد النساء» (١١٧/٣) وما بعدها) لتلقى بذلك تقديرًا أسلياً ، ولتكون فيما يظهر عبرة لمن يعتبر . وفي هذه القصة لا تنال الجارية الماكرة عقاباً ، مع أنها أودت بدافع الانتقام أن يلقي ابن الملك حتفه . وفي حين أننا نألف في الأساطير الأوروبية أن ينال مُرتكب الشر في نهاية الأمر ما يستحقه من العقاب ، نجد هنا ، وإن لم يكن دائماً ، استعداداً للغفو والمغفرة . فاعتقاد أن الانسان ليس مُخيراً في أفعاله بقدر ما هو مُسَيّر ، يُفضي إلى التسامح والتفاهي (أنظر ١٨٦/٣) . وعلى ذكر هذا ، يؤخذ من قصة السندباد البحري أن هذا الاعتقاد في المكتوب والمقدّر على الانسان سلفاً ، لم يحل دون اجتهد الانسان وبذله الجهد - على الأقل في عصر ازدهار الاسلام - ، بل أنه نماه وشجّعه .

إن مبدأ فئة التجار الذي تنطّق به هذه الرواية ، ولعلها نشأت في البصرة إبان القرن الثالث ، يُنصّر على أنه : «لا تعب دون مكافأة» ، وهو مبدأ يمكن أن يُعكس أيضاً فيكون «لا مكافأة دون تعب» . فمن كل جريئاً بحيث يخاطر بحياته ، ويتحمّل فضلاً عن ذلك بما يلزم من الصبر ، فإن نصيبه آخر الأمر النجاح إن كان مقسوماً له ، كما يؤخذ ذلك من حكاية الصائغ حسن البري . وهي حكاية تألفت من عناصر متباينة اشدّ التباين . أما من خاب سعيه وفتي بالفشل ، فإن هذا الاعتقاد يحمله على الاقتناع بأنه لا ذنب له في إخفاقه ، لأن القدر لم يشأ غير ذلك . وقصة «قمر الزمان» التي نشأت في مصر في القرنين العاشر والحادي عشر ، تبين لنا كيف كانوا يقيمون خُلُقياً حوادث الخيانة الزوجية في القرون

يقولها : « ما أنا بخاذلة لحادثة الزمان ، ولا بندرات الأيام وأنا له صعبة قديمة لا تُنسى وعجة لا تُبلى ، وأنا أحق من صبر معه في ضراء كما تمتعت معه في السراء » (٤٠٣/٣) .

ورفض زوجها أيضاً أن يستبدلها بـ « ثلث جوار نمو أبقار كأتهن أقمبار » (نفس المرجع) وبالمال والأموال . وقد كافأ معاوية ، المشهور بطيبته وحلمه ، هذا الوفاء بجائزة سنية ؛ ولا بد أن صنيع معاوية هذا قد أرضى شعور القاص وسامعيه بالعدالة والانصاف .

ومن العجيب حقاً أن يلعب بكثرة الحب العارم بين الرجل والمرأة مثل هذا الدور في قصص نشأت في مجتمع ، لم يكن تعدد الزوجات فيه هو القاعدة ولكنه كان على كل حال شامخاً ، ومتشراً بين الطبقات العالية ، مألوفاً فيها . ونذكرنا بعض هذا القصص بالشعر العذري الذي نشأ في القرن السابع . ولقد أصبح هذا النوع من الحب غير المتحقق المثل الأعلى لمجتمع القصر في العراق ابتداء من القرن الثامن فصاعداً وقد كانت حقيقة التصور الخلفي عنده من نوع مغاير تماماً . ولهذا فأننا قد نتساءل فيما يتعلق بروايات الحب وأساطيره في ألف ليلة : أكانت هذه الروايات أو الحكايات ، تمثل تصورات خيالية وأمانى كانوا يتمتعونها ، أم أنها كانت نوعاً من الأدب المضاد . ونظراً إلى أن الأمر يتعلق إلى حد بعيد بقصص شعبي ، وأننا نعلم من كتب الرحلات في القرن الخامس عشر وما بعدها أن الزواج من واحدة كان هو السائد ، فلعلنا نذهب إلى أننا هنا بصدد تصورات مثالية وتصير عما كان يتمنى الناس . لقد كانت الحياة الأسرية في الطبقتين العليا والمتوسطة خاضعة تماماً لسلطان الأب طيلة قرون ، ونقف على التصور المثالي للزوجة المسلمة الصالحة في أبيات وردت بها قصة الجارية تودّد :

نمها لحظت فعلبت ما تبغني

وحياً بذون إشارة وبها

واذا فُكرت إلى بديع جمالها
اغنت نعماتها عن البها

وكذلك أخلاقيات أقصوصة السقاء وامرأة الصانع (٣٩٨/٢) وما بعدها) تطابق التصور الإسلامي تمام المطابقة . ففي هذه القصة يقرب السقاء فجأة امرأة الصانع ، الذي خدم السقاء بيته في اخلاص طوال ثلاثين عاماً ، فتعتقد الزوجة بحق أن زوجها أيضاً فعل مثل ذلك مع امرأة أخرى وأن ما حدث لها هو العقاب العادل الذي فرضه القدر . وهي لا تدعو الله أن يغير لزوجها فقط ، وإنما لها أيضاً مع أنها لا ذنب لها أبداً . ثم يختم القاص كلامه محذراً بقوله : « فينبغي للمرأة أن تكون مع زوجها ظاهراً وباطناً وتقتنع منه بالقليل إن لم يقدر على الكثير وتقتدي بعائشة الصديقة وفاطمة الزهراء » (٤٠٠/٢) .

ويبدو من السائق تماماً في مجتمع كان على المرأة فيه أن تحتجب وتستتر ، أن يكون سبب الحب العارم في بعض الأحيان نظرة واحدة أو أقل ، وكثيراً ما يكون مجرد صورة امرأة جميلة أو وصفاً لها . ويشهد بعض القصص أيضاً بأن كثيراً من النساء قد عرزن عن طريق إزاحة حجابهن أحياناً أن يبدن ما خفي من حسنهن ، وذلك ليحملن بعض الرجال على تحقيق رغباتهن أو أن يؤدوا ما يعهدن إليهن به من مهام وأمر .

والحب الذكي المتفاني الذي تكنه المرأة للرجل في الأسطورة الألمانية له مثال مؤثر في قصة نساء الكرم . ذلك أنه حين طُلب إليهن أثناء الحصار الذي ضرب على مدينتين ، أن يتسحين ويأخذن معهن أعر ما لهن ؛ نجد أنهن يحملن أزواجهن على ظهورهن إنقاذاً لحياتهم . وفي قصص ألف ليلة نجد مثل هذا الحب ، قبل كل شيء في قصص يصور العلاقات بين جارية من الجوارى ورجل من أحرار الناس . وقد كان وراء تلك القصص شيء من الحقيقة كما يتضح من كتب الأدب ، ابتداء من القرن التاسع فصاعداً ، حيث يُصور فيها تفوق حب الرجل لجاريته على حبه لامرأة حرة ، لا يجوز له أن يراها قبل الزواج ولو مرة واحدة . جاء في المقد الفريد لابن عبد ربه « الأمة تُشترى بالعين وترد بالبيع ، والحرة عُقِلَ في عرق من صارت إليه »^(١) .



مشتمة من طراز امفهان ، نحو ١٦٠٠ ، للكتابة الهندية بلندن .
كانت هناك نساء ينقشن دون الكتابة كأبرج الخطاطين . . وهذه المرأة العارسية تكتب رسالة وتحتل بسلي من اللؤلؤ ، وقد رُفعت برقعها الأبيض الى الخلف .



منمنمة تركية ، نحو ١٦٤٠ - ١٦٥٠ ، المكتبة القومية بباريس .
 انها تعرف على العود ببراعة ورقة ، بحيث تدرب القلوب من الهجة .



سيدة من مغل ، الهند ، القرن السادس عشر ، متحف جويم ، باريس

وجمالها. وقد كان صاحبها ابن أحد التجار الأثرياء . فبَدَّ ماله واستسلم لليأس . فنصحتهُ بأن يذهب بها إلى هارون الرشيد ويعرض عليه أن يشتريها بعشرة آلاف دينار . ولم يكن بدَّ من أن تتجاوز امتحاناً ثبت فيه عملها ومعارفها أمام طائفة من أشهر علماء ذلك العصر . فبقيت لهُم أنها موسوعة في العلوم الإسلامية للصور الوسطى ، من نحو وشعر وشريعة وتفسير وبلاغة وفرائض وخطابة وأخبار الأوائل وفلسفة وطب وهندسة وقياس الأرض وفلك . ويتضح أنها ليست متفوقة في كل هذه المعارف فحسب ، بل هي أيضاً بارعة في لعب الترد . وأخيراً تسحر ألباب السامعين ببنائها وضربها على العود . غير أن خاتمة القصة تطلُّفنا على معايير التقسيم الاجتماعي : فسيدها الجاهل يتقاضى مائة ألف دينار ثمناً لها ، وتُردُّ هي نفسها إليه نزولاً على رجاتها كهدية سخية من الخليفة وتصبح نديمة له . أما هي ذاتها فتسكفاً بخمسة آلاف دينار .

أما مثال جوارى أسر الطبقة المتوسطة فمرجانة التي جمعت أيضاً بين الذكاء والجمال . وهي البطلة الحقيقية لقصة «علي بابا والأربعين حرامي» ، إحدى القصص المصرية المتأخرة . إن هذه القصة التي ليس بها من العناصر الحارقة للطبيعة سوى الجملة السحرية «إفتح يا سمس ١» ، والتي تأسرنا ببنائها المنطقي ، ليست أصلاً مجرد قصة الفقير الذي يصيبه الثراء على نحو معجز عجيب ؛ بل إنها قصة الأوغاد الذين يجدون من يلقيهم درساً ، ولكنه ليس الرجل الطيب الفقير ، وإنما جاريته الذكية . ومغزى القصة ، على ذلك ، أن مكر النساء ودهامهن يقهر حيل الرجال ويطلِّها . فمرجانة تخدع اللصوص وتضلِّهم بأن تنشئ علامتهم على أبواب الجيران أيضاً ، وكونها تخطيط جثة الأخ الطماع أساس لاستمرار أحداث القصة وهي تعد لذلك إعداداً طبياً ، فتشفيح أولاً أن الأخ مريض ، وتتابع لذلك أدوية ملائمة . ودون أن تطلب عوناً من أحد أو تُولي أحداً ثقتها ، تقتل غير حياة ولا خائفة ٣٧ لصاً . ولملِّ

ومن أمثلة ذلك قصة نور الدين ، ابن التاجر ، ومريم صانعة الأحزمة . ابنة أحد ملوك الإفرنج . وهي قصة تظهر ، لما فيها من كره للنصارى ، تأثير عصر الحروب الصليبية . فصاحب مريم يمنحها الحق في أن تختار بنفسها من يشتريها ، لأنها شفتها من مرض شديد الوطأة . ولما كان هذا كثير الورود في المجموعة ، فلا بد أنه يعكس أوضاعاً حقيقية . وكل من أراد شراء مريم من الشيوخ أو أصحاب الملاع القبيحة ، هبت بأبيات لاذعة موجهة ، فضحت فيها عيوبه البدنية . وفي آخر الأمر تطلب إلى الشاب الجليل نور الدين أن يمتلكها . ثم أنها لا تصحب له حبيبة ودية بيت فحسب ، وإنما تنهب أيضاً بأعالتها . ففي الليل ، عندما يخلد إلى النوم ليستمتع من الحب ، تطرز هي أحزمة رائعة ، ليبيعها في اليوم التالي في السوق . وهي تعمل فيما بعد رباناً لسفينة ، لأنها : كانت قوية القلب تعرف بأحوال سمر المراكب في البحر المالح وتعرف الأهواء كلها واختلافها وتعرف جميع طرق البحر» (٢١٨/٤ وما بعد) . وتقتل في غير رحمة كل المطاردين ، وفيهم إختوتها أيضاً ، الذين تعقبوها هي وحبيبها نور الدين في جيش جرار ليقتلوهما . إنها تضحك في عطف وتسامح عندما يجيبها نور الدين على طلبها إليه بأن يساندها في القتال بقوله : «إن ثباتي في النزول مثل ثبات الود في النخال» (٢٤٢/٤) . ثم يعلن بكلام مكشوف عن أي نوع من «الطعن» أحب إلى نفسه .

إن الجارية الحسنة الذكية صاحبة الثقافة المتعددة الجوانب ، والتي حظيت بأسمى مكانة في قصور الأعيان في القرنين الثاني والثالث كلما ازداد اعتقاد المرأة الحرة عن الحياة العامة ، إن هذه الجارية يمكن عدّها واحدة من الشخصيات النمطية في ألف ليلة وليلة وأشهر أمثلتها في المجموعة هي «تودد» في القصة التي تحمل اسمها . ومنشأ هذه القصة العراق في القرن الثالث على ما يرجح وقد عرفت أيضاً طريقها إلى الأدب الإسباني . والجارية تودد تنقذ أيضاً سيدها من الفقر والضياع بحكمتها

الوحشية التي تم بها ذلك لم تُفرغ السامعين في ذلك الزمان ، ولم تعد الوسيلة التي تصدم به الروايات البوليسية الحديثة قراءها . وبعد أن فرغت مرجانة مما فعلته تُطلع سيدها على الأمر في حذر ، مبدئة من روعه ، وفي خلال ذلك تتمتع بهجاء أعدته بنفسها . وهي أيضاً التي أفسدت الحيلة الجديدة لشيخ اللصوص ، إذ هي الوحيدة التي ساورتها الشكوك عندما أبى أن يأكل الملح في بيت علي بابا ؛ والملح علامة الصداقة بين الخفيف وضيغه . وهي تعرف بما لها من تنوع الجوانب ، كيف تأسر الضيف برقصها مرتدية ثوباً يبرز مفاتيحها ، ثم تقتله في غير خوف أو وجل . وكما هو الحال في القصة البوليسية - وكذلك أيضاً في الحكاية تنتهي الأحداث نهاية سعيدة ؛ فبعد أن ينال الأشرار ما يستحقون من عقاب ، تُوجج مرجانة من ابن علي بابا ، مكافأة لها على وفائها وإخلاصها . ومعنى ذلك أنها تصمد على السلم الاجتماعي بخطوة واسعة .

ومثل تودد في الجمال وتعدد الواهب والبراعة الجارية «قوت القلوب» التي تظهر في هذه الحكايات أكثر من مرة . ففي حكاية خليفة الصياد والخليفة الصائد توصي أحد أغنياء التجار خيراً بالصياد العشيم فتقول : لا تؤاخذنه فإنه رجل عامي (١٨٧/٤) .

ومن المؤكد أن دور الوسيط الاجتماعي الذي قامت به الجارية ليس مجرد صدقة ، لأن في ألف ليلة شواهد على أن مثل هؤلاء الجوارى يكن خاضعات لأمرجة أصحابين ، على الرغم مما هن من ذكاء وهما خلاب . وهكذا كان تعاطفهن مع المظلومين اجتماعياً أشد من تعاطفهن مع الطبقة العالية . وقد كانت الغاية من تعليمهن هو مسامرة هذه الطبقة العالية وتسليةها . هذا وتبين المجموعة أيضاً بأنه كان ثمة نساء حرائر ، اشتغلن بمسائل العلم في عصرهن وبعلم الدين ، ولم يكن ذلك لداعي المسامرة والمداومة في القصر فقط ،

ولكن من أجل العلم ذاته أيضاً . فيخبرنا القاص عن امرأة هي «سيدة المشايخ» بقوله أنه لم ير امرأة : «أذكر خاطراً وأحسن فطنة وأقزر علماً وأجود قريحة وأظرف أخلاقاً» .

وقيل إن هذه المرأة كانت تعظ الناس في حمة بالشام في القرن السادس من فوق المنبر . وتضطر هذه المرأة إلى أن تخوض نقاشاً حول فضائل الجنسين ، وتنتهي بالتركيز على أيهما يفضل الرجل من الناحية الجنسية ، الغلام أم الفتاة ؛ فتحجج الأخيرة محققة بذلك نصرأ باهراً (٤٥٦/٢ وما بعدها) .

إن عشق الغلمان في أصله غريب عن العرب ، ولكن سرعان ما تسرب إلى عالم الإسلام من بلاد الروم والفرس ، والمناقشة العلمية الكاذبة حول هذا الموضوع تبدو للقارئ المعاصر وكأنها نوع من المحاكاة الساخرة أو العابثة للطرق العلمية في ذلك العهد . ولا نشك في أن طائفة كبيرة من أهل البلاط كانت تدافع عن وجهة النظر المخالفة . . ويشبه هذا النقاش طرائف تتنازع فيها جاريان أو ثلاث قضاء ليلة حرام مع الخليفة هارون الرشيد ، فيستشهدون في كلامهم بأحاديث نبوية ، ومقلدات في ذلك طريقة الجدل التي جرى عليها علماء المسلمين في ذلك الحين ، وذلك على نحو يُعَد اليوم بمثابة كاريكاتير ماجر . (٣٩٢/٢) .

ويرد ذكر ملكة سبأ دون أن تُوصف بوصف يسط من شأنها . وورد في مسند أحمد حديث نصه «إن يفلح قوم أسندت أمرهم إلى امرأة» .

ونقرأ عدداً من المرات في ألف ليلة عن ملكات ذكيات عادلات ، كما لا يكون إلا في الأساطير . من ذلك مثلاً ابنة الملك بدور ، التي يخفي زوجها قمر الزمان في ظروف غامضة أثناء قيامه ببعض الأسفار . وحتى لا تضطرب الحاشية أو يستب بها القلق ، ترتدي بدور ثياب الملك وتمثل شخصيته . وفي قصة قمر الزمان هذه التي



عاشقان و خادمة ، فارسي ، عصر تاجيار ، مطلع القرن التاسع عشر .

فيها سلطة الأب في الأسرة وسيطرة الرجل في جميع نواحي الحياة تقريباً أموراً طبيعية . ولا يبعد أن تكون هذه القصص قد حفظت لنا بقايا من مظاهر نظام الأمومة ، على ما كان موجوداً قبل دهر طويل في الشرق الأدنى ففي جزيرة العرب كانت لا تزال آثار من نظام الأمومة قائمة حتى عصر النبي .

وثمة حكاية من بلد تحكمه امرأة وتشغل فيه النساء وظائف الوزراء والقضاة ، ومن يمين قواد الجيش والجند . وفي ذلك البلد ينهض الرجال بأعباء الزراعة فيحراثون ويبذرون ويحصدون ويشغلون بمسارعة الأرض وعمارة البلاد ومصالح الناس من سائر الصناعات .

ومن أن هذه الأوتعاج لم تكن من الأمور الواقعة ، إلا أنها تدخل في نطاق المتصور^{١٧} . إن جزر واق الواق - وهي التسمية العربية في العصور الوسطى لجور اليابان - التي يصل إليها البطل الأسطوري حسن البصري ليسترد زوجته النائية ، لا يحكمها إلا النساء ، وقد عرف هذا الرعم سبيله إلى مؤلفات العرب في وصف البلدان . وكذلك عرفت الحكاية الشعبية صوراً أخرى من الأوتعاج الاجتماعية .

فحكاية الأمير أحمد والجنينة الجميلة يرى بنو ، وهي حكاية فارسية الأصل على ما يُحتمل ، تعبير عن الشوق إلى تحرير المرأة ، الذي لم يتحقق بعد ذلك بعدة قرون على حد سواء في كل مكان . ففي عالم الجن الذي تنتمي إليه يرى بنو ، تستمتع الفتاة بحرية اختيار شريك حياتها على وفق هواها لا هوأى أبويها ؛ ولذلك تصبح الزيجات هنالك سعيدة موقفة ، بخلاف نظائرها في عالم الأنس . ففي عالم الجن تستطيع الفتيات أن تصارح الرجل الذي تبواه ببرنامجها ، دون أن يفرض عليها الانتظار إلى أن ينخطب وهما^{٣٧/٣} وما بعدها حسب ترجمة ليشمان .

وتظهر في الف ليلة وليلة كائنات تفوق قدرتها طاقة البشر وجنيات طبيبات وأخرى شريرات على ما هو مألوف

يبدو أنها نشأت في عصر متأخر بمصر ، تضم بدور مملكة أخرى إلى مملكتها وبعدها تسمح : «جلست على كرسى المملكة وظلمت إليها الأمراء وجميع الرؤساء وأرباب الدولة وهنتوا بالملك وقبلوا الأرض بين يديها ودعوا لها فتبست وأقبلت عليهم وخلمت عليهم وزادت في إكرام الأمراء وأرباب الدولة واقطاعهم والجووش فأحبوها ودعوا لها جميع الخلق بدوام الملك وهم يعتقدون أنها ذكر فأمرت ونهت وحكمت وأطلقت من في الحبوس وأبطلت المكوس ولم تزل قاعدة في مجلس الحكومة إلى أن دخل الليل» (٨٨١/١) وهكذا كان تصور الشعب للحاكم العادل .

كانت بنات الأمراء يُعتبرن بصورة عامة أعلى شأنًا من أزواجهن الذين لم يرتفعوا إلى المراتب العالية إلا عن طريقين . وهذا ما وصفه لنا الرحالة الأوروبيون فيما يتعلق مثلاً بفارس في عصر الصفويين أو تركيا العثمانية . فانزال المرأة اجتماعياً عن درجتها كان إلى حد ما أمراً مرتبطاً بانتماها الطبقي .

وابنة الملك التي فاقت في ذكائها من يحيط بها من الرجال ، نجد لها مثلاً في قصة معروف الاسكافى الفكاهية ، وفي قصة الأخنتين اللتين تحسدان أختيهما . وهنا نجد أن الشباب الذين أنقذتهم هذه الأخيرة بشجاعتها وحصافتها ، يمدون إليها بالقيادة في رحلة عودتهم . ولكنها تجيب بروح اسلامية : «يا سادتي ، لا يجوز لي وفقاً للشريعة أن أتقدمكم ، ولكن ما دمتم قد أمرتموني ، فليس لي إلا الطاعة» (١٩٣/٥) .

ونقرأ في عدة مواضع من ألف ليلة (منها ١٦٩/٣ وما بعدها) أن الأميرات كثيراً ما يدقن في الاختيار ويشترطن ألواناً من الشروط عندما يتعلق الأمر بمن سيتزوجن منه . ومن على الجملة يابن الخضوع لسلطان الزوج .

ولا بد أن عدداً من القصص بدت لسامعها وكأنها صور لعالم مقلوب في تلك العصور الوسطى التي كانت



لَمَ وَطَنُهَا ، من عمل الفنان التركي اسمعيل جو بان (من مواليد عام ١٩٤٥) .

في كل الأساطير عند سائر الأمم . وفي حين أن النساء اللاتي يتمتعن بقوى سحرية ويتماطين السحر والشعبذة في الأساطير الأوروبية ، عجائز يلفن الغاية في القبح وبشاعة النظر ، فإنا غالباً ما نجدهن في ألف ليلة شبابت جميلات ذوات فتنة وإغراء يثيرن الشهوات ويشتهين .

وتعتبر العجائز على الخصوص داهيات ، واسمات الحيلة ، لا سيما إذا قمن بدور الحاطية ، ولعل مرجح ذلك أيضاً الى تتمتعن بحرية الحركة الى حد بعيد نظراً الى سنهن . وهن يستخدمن مكاتدهن لمصلحة شخصيات الحكاية وخيرهم ، حتى وإن كانت اسماؤهن تؤذن بالشر والأذى ، مثل «شواهي ذات الدواهي» ، مضافاً الى ذلك أمر يكاد يكون نذير سوء ، وهو أنها ذات عينين زرقاوتين (عمر بن النعمان ، حسن البصري) . على أنه توجد أيضاً الروجة المعجوز السيئة الخلق ، أعني بذلك زوجة معروف الاسكافي ، التي يُمن عليها اسمها ، وهو «فاطمة العرة» . فهي لا تضرب زوجها الطيب فحسب ، وإنما تكييل له التهم ظلماً وعدواناً ثلاث مرات عند عدد من البضاعة الذين يضطرون الى الاصلاح بينهما . ويصلح أحد هؤلاء القضاة بينهما بكلام يمثل التصور الاسلامي لوضع الرجل والمرأة في الزواج . وقال «يا حرمة أطيعي زوجك» ، وأنت يا رجل تفرق بها» (٦٨٠/٤) .

وتبين كذلك هذه الحكاية أن المرأة لم تكن بدون من يحامي عن حقوقها . فقد كان بوسعها ، كما يتضح هنا ، أن تستعين بالقاضي على زوجها دون أن تكُرم باحضار شهود على دعواها . وهذا ما تؤيده أيضاً مشاهد من مقامات الحريري .

وثمة حديث نبوي أدخله جوته مع تغيير يسير في ديوانه الشرقي الغربي^(١٠) ، ونص هذا الحديث هو «استوصوا بالنساء خيراً فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيء في الضلع أعلا ، قال فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن

تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً» . وهذا موقف يعلو على المناقشات التي كانت لا تزال دائرة في جامعة فيتنبرج في النصف الثاني من القرن السابع عشر للميلاد حول إذا ما كانت المرأة كائناً انسانياً على الاطلاق^(١١) .

من المؤكد أن حكايات ألف ليلة لم تصور أصداء المواقع فحسب وإنما مثلت أيضاً آماني وأحلاماً تنبثق الى التغلب على الحاجة والضيق وكذلك على بعض التقاليد التي فرضتها عوامل مختلفة . صورة المرأة في هذه المجموعة مطبوعة جزئياً فقط بطابع الرضى واستعلاء الرجل . وتبين لنا النساء الكثيرات اللاتي تتمتعن بالذكاء وسعة الحيلة ، أنه قد وجدت حتماً نساء كان لهن من عزم الرجال ما كفل لهن أن يفرنن أنفسهن ، وإن الرجال لم يقابلوا هذا بالتسامح والتغاضي فحسب ، بل أنهم قبلوا ذلك بنفس راضية .

فلا غرو أن تلقى هذه المجموعة منذ عدة عقود والى اليوم تقديراً كبيراً في الشرق . وقد كانت شخصية شهرزاد الذكية مصدر وحي لبعض الكتاب مثل توفيق الحكيم وطه حسين . وقد أطلق الكاتب المصري يوسف الشاروني على ما انتخبه من قصص الكتابات المصريات وأصدره في القاهرة سنة ١٩٧٥ اسم «الليلة الثانية بعد الألف» رابطاً هذه المختارات ربطاً واعياً بالمجموعة المشهورة ، وفي المقام الأول بالشخصية الرئيسية للحكاية الخارجية ، مع أن أكثر ما انتخبه ليس بينه وبين الحكايات الأسطورية سبب ، وإنما هي قصص تنقد نقداً مرّاً أوجه التقصير الاجتماعي في وضع المرأة المصرية المعاصرة .

هذا والمثال العراقي محمد غني ، الذي يُمنى عناية بالغة بتحرير المرأة العراقية قد أقام في إحدى الساحات الحديثة ببغداد ، تمثالاً للجارية مرجانة ، وهي بجلاء تدبرها وقوة شكيמתها البطلة الحقيقية لحكاية علي بابا والأربعين حرامي .

(١١) ليخاري : كتاب الجامع الصحيح . أعددته ل . كريل . لندن ١٩٦٨ . ج ٣٠ ، ص . ٣٣١

(١) أخذت الشواهد كافة من طبعة ألف ليلة وليلة لإبراهيم مكسلمان ج ١ - ٤ ، كالكتا / لندن ١٨٢٩ - ١٨٤٢
* نقلاً عن الترجمة الألمانية لأنو ليشمان

(١٢)

Hochsch F H u J C Walz: Quaesius Foemina non est homo videtur publice in Auditorio Icturum a D XIV Decembris Anno 1672 Nunc recusa Wittenbergae 1678

(٢) أنظر :

Coupe, W. W. The German illustrated broadsheet in the seventeenth century. Vol. 1 Baden-Baden 1966 (Bibliotheca Bibliographica Aureliana XVIII) S 95

(٣) أنظر :

Grödzher, I. Adab, in: Enzyklopaedie des Islams Bd 1/1913, S. 129

المراجع

(٤) كتاب القهرست ، أصدره غ . فلوجل ، لايبزيغ ١٨٧١ ، ص ٣٠٤

(٥)

Göttingisches Magazin der Wissenschaften und Literatur 11/1781, S. 305

Gerhardt, M. L.: The Art of Story-Telling. A literary study of the Thousand and one nights. Leiden 1963

Heller, B.: Das hebraische und das arabische Märchen, in: Bolke, J. und G. Polyska: Anmerkungen zu den Kinder- und Hausmärchen der Brüder Grimm, Bd. IV. Leipzig 1930, S. 315-418

Kahlo, G. Die Wahrheit des Märchens. Halle (Saale) 1954

Leyden, F. von der Die Welt der Märchen. Bd. I, II. Düsseldorf 1953, 1954

Littmann, E.: Alf laila wa-laila, in: The Encyclopedia of Islam, New Ed. Vol. I, Leiden, London 1960

Littmann, E.: Zur Entstehung und Geschichte von Tausendundeiner Nacht, in: Die Erzählungen aus den tausendunden Nächten Vollständige deutsche Ausgabe in sechs Bänden . übertr. v. E. Littmann 3. Aufl. Leipzig o. J. Bd. VI, S. 641 - 728

Gestrup, J.: Studien über tausendundeine Nacht. Aus dem Dän. nebst einigen Zusätzen v. O. Rescher, Stuttgart 1925

Rescher, O.: Studien über den Inhalt von tausendundeiner Nacht, in: Der Islam 1X/1918, S. 1-94

(٦) للتقي المكندي : منتخب كثر العمال ، على مائش : أحمد بن حنبل : مسند ، مصر ١٣١٣ . ج ٢ ، ص ٤١١

(٧) للكان نفسه

(٨) ابن عبد ربه : كتاب العقد الفريد ، شرحه وضبطه وصححه أحمد أمين ، إبراهيم الأبياري وعبد السلام هارون . ج ٦ ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ١٢٩

(٩) أحمد بن حنبل : مسند ، مصر ١٣١٣ ، ج ٥ ، ص ٤٨ ، وأنظر نفسه ج ٥٠ ، ص ٢٨ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٥١

(١٠)

Goethe, J. W.: Westöstlicher Diwan. Hgb. u. erf. v. E. Beutler Leipzig 1943, (Sammlung Dietrich Bd. 125), S. 41:

Behandelt sie Frauen mit Nachsicht '
Aus kummer Rippe ward sie erschaffen,
Gut konnte sie nicht ganz, grade machen
Willst du sie hängen, sie bricht,
Läßt du sie ruhig, sie wird noch krümmen;
Du gutes Adam, was ist denn schlummer? -
Behandelt die Frauen mit Nachsicht,
Es ist nicht gut, daß euch eine Rippe bricht "

الشعر الأوردي المعاصر تصوير الواقع في شعر فيض أحمد فيض

مركز الحياة الأدبية النشطة ، وشرع في التدريس بكلية التجارة «هايلي كوليج» . وفي عام ١٩٣٦ انضم إلى فريق الكتاب للماركسيين الذين مهدوا تحت زعامة سياد زهير لتأسيس اتحاد الكتاب التقدميين لمعوم الهند^(٢) . وفي الوقت الذي كان فيه القسم الأكبر من أدباء اتحاد كتاب الأرو دون روابط مباشرة بالطبقات العامة ، قام فيض بتوثيق صلاته بالطبقات الكادحة . فقام - ولربما لأول مرة في تاريخ الهند - بتنظيم صفوف أكثر العمال تعاسة وشقاء وأسس لهم نقابات عمالية . ولا تزال تدوين له «نقابة الحمالين» و«عمال اليرمية» ، و«العمال غير المدرسين» بالفضل الكبير للجهود الجبارة المتواصلة التي بذلها في سبيلها . ولم يكن هذا كل شيء بل أنه عمد إلى تعليم المقلتين الذين يشكون من الفقر المدقع ، القراءة والكتابة ، وتناقش معهم في مسائل الماركسية الأولية . خلال السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية تخلى فيض عن العمل في المدارس وانخرط في جيش المستعمرات البريطاني ، وما عثم أن رقي إلى مرتبة ملازم أول في مديرية العلاقات العامة في الجيش البريطاني الهندي . ثم أنتم عليه بوسام «الامبراطورية البريطانية» كمكافأة له على الجدارة التي أبدأها أبان الحرب .

بعد تقسيم الهند أصبح فيض من مواطني باكستان ، فتخلى عن الوظائف العسكرية وانصرف إلى الصحافة وأصبح رئيس تحرير «باكستان تايمس» الصادرة بالانجليزية ، وأصدر في لاهور صحيفة «امروز» (اليوم) اليومية باللغة الأردية . كان أمل فيض أن يقوم تنظيم الدولة الجديدة على مبادئ العدالة الاجتماعية ولكنه ما لبث أن تبين خيبة آماله ، لا من جراء أعمال القتل الجنونية وأعمال السلب التي رافقت عملية

ليس فيض أحمد فيض - الذي بلغ سن السبعين عام ١٩٨١ - أكثر شعراء اللغة الأردية شعبية في الهند وباكستان فحسب ، بل هو أيضاً أعظم شعراء الأردية المعاصرين ومن أعمقهم تأثيراً ، وهو بالمثل شخصية بارزة من شخصيات الحياة العامة في باكستان . هذا وقد حاز فيض عام ١٩٦٠ على وسام لينين للسلام ، وهو وسام نادر لا تمنحه حكومة الاتحاد السوفيتي عادة إلا للغنائين التقدميين من أبناء البلدان النامية .

ولد فيض^(١) بمدينة سيالكوت الشمالية في عام ١٩١١ ، ونشأ في إقليم البنجاب الذي لم يكن قد تخلى بعد حدود النظام الاجتماعي ، ولكن أسلافه من الفلاحين . غير أن والده -الذي اتمسم بالعزم والقدره - انتقل إلى أفغانستان قبل مولد ابنه فيض ، وتقلب هناك في المناصب إلى أن أصبح مديراً للإدارة المدنية . ولكن الإصلاحات التي قام بها أثارت الحسد في نفوس رجال البلاط ، فاضطر إلى التسلل من كابل هارباً في ثياب التنكر . ثم سافر إلى إنجلترا لدراسة الحقوق في كامبريدج ولندن وعاد في خاتما عمالياً إلى الهند .

لم يقتف فيض أثر والده ويحذو حذوه ، ولم يرسل إلى أوروبا للدراسة في المعاهد العليا هناك . وإنما تلقى تعليمه في المعهد التبشيري الاسكتلندي المالي ودرس بصفة خاصة العربية والفارسية والأدب . وبعد اختمام دراسته المتوسطة في مسقط رأسه أرسله والده إلى لاهور ، عاصمة البنجاب لتلقي دراساته العليا في اللغة العربية والانجليزية . وما لبث أن حصل على مرتبة «ماستر آرتس» (أستاذ فنون) وعُين في كلية الدولة ، ثم انتقل إلى أمرتسار حيث عمل محاضراً للغة الانجليزية في عام ١٩٣٤ ، ثم عاد فيما بعد إلى لاهور ،

التقسيم فحسب ، وإنما لما انطوت عليه قوانين الدولة الجديدة ذاتها من اجحاف ، فقد كان هدفها الأول هو تأمين الرخاء والعيش الرغد للملاك الأراضي ورجال الصناعة دون سواهم .

في تلك الآونة ازداد انجذابه الى الحرب الشيوعي . وبدأ كفاحه من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية للمواطنين . وأصبح نائباً لرئيس اتحاد نقابات العمال الباكستاني ، وذلك حتى يستطيع من هذا المركز الدفاع عن مصالح الطبقات الكادحة بصورة أشد وأمضى . وفي تشرين الأول (نوفمبر) ١٩٤٩ قام بتنظيم المؤتمر الأول للكتاب التقدميين ، ثم قام بعد عام من ذلك بتأسيس حركة السلام الباكستانية . وفي عام ١٩٥٠ أصبح الأمين العام للجنة السلام الباكستانية ثم أصبح في عام ١٩٥٠ عضواً في مجلس السلام العالمي .

وفي عيشة الانتخابات العامة الأولى التي أجريت في البلاد في مارس ١٩٥١ اتهم رئيس وزراء الباكستان «لياق علي خان» الحرب الشيوعي (الذي كان يقوم بنشاط رسمي في ذلك الوقت ، وإن كان يخضع باستمرار لرقابة الدولة) ، بأنه يدبر مؤامرة لاسقاط الحكومة بمساعدة بعض ضباط الجيش الباكستاني . وعلى أثر ذلك أُلقي القبض على سياد زهير ، السكرتير العام للحزب الشيوعي ، وعلى أحمد فيض ، وعلى اللوات أكبر خان ، أركان حرب الجيش الباكستاني ، والرائد محمد اسحاق ، سكرتير الحرب الشيوعي الباكستاني وغيرهم من الضباط الآخرين بتهمة تدبير مؤامرة عسكرية^(٤) فسي راولبندي .

أمضى فيض الأشهر الثلاثة الأولى من اعتقاله في السجن المنفرد في سجون ساركودا وليالور . وخلال هذه الفترة لم يسمح له بمطالعة كتب أخرى غير القرآن الكريم . وفي حزيران ١٩٥١ نقل إلى سجن القرقة في حيدرآباد حيث منح هناك جانباً أكبر من الحرية . إلا أنه أمضى هذه الفترة وهو مهدد بتوقيع عقوبة الاعدام عليه في أي وقت . وانتهت المحاكمة التي أجريت في كانون الثاني ١٩٥٣ بالحكم على جميع المتهمين بالسجن لمدة مختلفة . وتم في العام الذي أعقب

ذلك منع الحزب الشيوعي من مباشرة نشاطه في جميع أنحاء الباكستان . ونقل فيض بعد استيلاء صحته إلى مستشفى جناح بكراتشي للمعالجة ثم استبقى في سجن مونتجاري فيما بعد ، حيث تمتع بحريات كبيرة نسبياً ، فكان يقضي وقته في العناية بأزهار الحديقة ، كما شرع في تعلم اللغة الفرنسية . وأخيراً أطلق سراحه بعد أربع سنوات وذلك عام ١٩٥٥ .

بعد الانقلاب العسكري الذي قام به أيوب خان عام ١٩٥٩ اشترك في المؤتمر الذي عقد للكتاب الآسيويين والافريقيين في ملشدند ، ومن جديد أُلقي القبض عليه بعد عودته من الاتحاد السوفيتي ولكن أُخلي سبيله هذه المرة سريعاً مع شيء من التكرم والحفاوة . وفي عام ١٩٦٢ تلقى دعوة من موسكو وأنعم عليه هناك بوسام لينين للأدب اعترافاً بالنشاط الذي أبداه في صالح التقدم الاجتماعي والسلام العالمي .

في السنوات التالية ازدادت الروابط بينه وبين النظام القائم . فقتل منصب مدير كلية عبد الله هرون في كراتشي ، وعمل كمستشار ثقافي للحكومة الباكستانية ، وعُين عام ١٩٦٠ أميناً للمجلس القني الباكستاني بلاهور ، وعام ١٩٧٢ رئيساً للمجلس القومي الباكستاني للفنون في اسلام آباد . وقام في هذه الفترة برحلات واسعة زار خلالها الكثير من البلدان وعاش هذه الحقبة من حياته ك شخصية هامة ، ومع ذلك فقد ظل «شاعراً» قبل كل شيء .

خلال حقبة الرومنتيكية الأولى من محاولاته الشعرية التي تضمنتها مجموعة قصص فيريادي (الشكاوي ١٩٤٣) كتب فيض أشعاراً في الغزل تسيطر عليها روح الأدب الفارسي الكلاسيكي ، إلا أنه نظم قصائد أخرى أكثر أهمية تعبر عن إيمان إنساني ديمقراطي حقيقي بانتهاء الحرب بجانب الحق والعدالة . واستهدف بهذه الاشارات بثث الشجاعة في نفوس القادة السياسيين في وطنه لكي يكسروا ثقة قوى الشعب الخلاقة فتستغل انتصار الديمقراطية بلوغ الاستقلال السياسي .

وفي مجموعه الثانية ، دامت صبا (يد الصبا ، ١٩٥٢)



«ملك القلوب» .
لوحة زيتية من الباكستان ، من عمل الرسام الخطاط سادتين



لوحة زيتية من الباكستان ، من عمل الفنان الباكستاني كامل خان ممتاز (مواليد كلكتا عام ١٩٣٩) .

يتوقف فيض عن النظر الى العالم بعيون رومنتيكية ويعبر عن استيائه العميق لوضع العالم الراهن . ومع تملقه الكبير يوطئه فان عواطفه تنف الآن بصورة عامة بجانب كل الشعوب المضطدة في افريقيا وآسيا .

من حب وبغض ، وكل ما يشعر به من سعادة وغم . أما مدى اتساع آفاقه فيتوقف على صلته الفكرية والمأطية ببقية الخليقة ، وعلى الأصح هؤلاء الذين يقاسمون الأخوة البشرية .

أما الأشار التي نظمها في سجنه وتم نشرها في مجموعة زندان نامه (رسائل من السجن ، ١٩٥٦) فتعبر - بجانب تأملاته لما عاينه ولما وقع عليه من حيف - عن إيمان راسخ بانباء النضال في سبيل الحرية بخاتمة سعيدة ، كما تعبر عن عزمه على التنبل على كل كرب وحقيق . وتجد أيضاً مثل هذه الشاعرات في كبه الأخيرة دست ته مستك (يد تحت الحجر ، ١٩٥٩) وساري وادي ميئا (وادي سيناء ، ١٩٧١) . هذا وقد نشر فيض مقالاته النقدية في كتاب بعنوان ميسزان (التوازن ، ١٩٦٥) .

وفيض هو في الأصل شاعر عاطفي ، شاعر لواحج قلب الإنسان الدفينة والروح الانسانية . الا أنه ليس بمجرد شاعر فحسب بل هو مواطن أيضاً يكرس الكثير من الوقت والجهد من أجل قضية تحرير الشعب . وأهم مواضعه هو الكفاح الثوري ضد كل نوع من أنواع الاضطهاد والاستغلال ، ومؤازرة وتنشيط حركة التقدم الاجتماعي بكل معنى الكلمة ، والدفاع عن السلام ، والتعرض ضد الحرب . وهو بهذا المعنى كاتب واقفي يملك غريزة لا تخفي . في فهم الحقيقة والواقع . ولا يؤمن فيض بأي قدر مسبق محتوم ، بل بالمعكس فانه يرى امكان تفسير هذا القدر بعمل الانسان ويدعو الى ذلك . وهو يدرك أنه يعيش في عالم حديث ويود معالجة قضايا الملحة ، وحلها في أقصر وقت ممكن . وقد عبر عن قناعاته بالكلمات التالية :

ولقد كان الدرس الأول الذي تعلمناه هو أنه ليس في الامكان إعمال الفكر مع الانكساف والعزلة عن بقية العالم ، اذ أن كل الخبرات والتجارب التي يصادفها الانسان في بيته قد تضمنتها هذا العالم ولا تنفصل عنه . والدرس الثاني هو أنه حقيقة في الامكان الانمزال عن بقية العالم ، ولكن مثل هذا العمل بلا أي فائدة ، اذ أن الشخص الانطوائي هو ليس الا بكتان صغير جداً لا أهمية أو شأن له بالرغم من كل ما يكتنه

يؤمن فيض بقوة الكلمة الشعرية ، وتكاد تتجلى في كل بيت من الأبيات التي نظمها شاعريته الرقيقة مزجوة بالحديث عن أكثر المعضلات الاجتماعية شدة . نعم انه يؤمن بأن من واجب كل شاعر مجيد اظهار جمال الحياة للآخرين . ويعمد في شرح هذه النظرة الى استخدام مجازات واستعارات مبرزا غالب الذي كتب في أحد أشعاره الغزلية بأن واجب الشاعر أن يتمثل في عينه نهر الدجلة في نقطة ماء واحدة . ويضيف فيض الى ذلك فيقول ان واجب الشاعر هو أن يتمثل النهر في نقطة ماء فحسب ، بل أن يطلع الآخرين على ذلك وأن يعرفهم به ، في الفن وفي الحياة أيضاً . وبعبارة أخرى ان مهمة الشاعر عند فيض ليست الرؤيا والتأمل فحسب ، بل الكفاح وبذل الجهد أيضاً ^(١) . ونود أن نضيف الى ذلك بأنه كان يرى أن أقوى وأعظم تيارات الحياة هي تلك التي يمثلها كفاح الشعوب الآسيوية والافريقية في سبيل الحرية ، والاستقلال ، والسلام .

وتمتد جذور شعر فيض البعيدة وتتغلغل تاريخياً في تقاليد أدب الأردنو الديمقراطية التي تطورت في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، في الوقت الذي كان يبعث فيه الشعراء الرومنتيكيون مثل الطائف حسين حالي ، ومحمد اقبال تحت تأثير الحركة القومية المتزايدة ، مشاعر الوطنية في شعب الهند . بدأ فيض في الكتابة عندما غادر استاذ ادب الاردو الأكبر - محمد اقبال - المسرح ، فتناول منه راية الطبقات المضطدة وسبغ عليها حلة جديدة ، وأكسبها ألواناً جديدة . وتنطبع أشعاره كشعر اقبال بطابع الاستقامة والاخلاص ويتجلى فيها ميله الى وجهات النظر الفلسفية البعيدة . وكلا الشاعرين يستخدمان نفس الأشكال والمواد التقليدية ويولان بالأساليب القديمة والصور الرمزية التقليدية . ومع ذلك فيجد ف . كيرنان فارقاً كبيراً بينهما في صيغة أشعارهما ، فليقبال يميل الى الاندفاع العاطفي ويهوى الهجوم ويتصف

ومن خلال ضغطها على حضارتها الراسخة الممتدة بنفسها ولدت في وعيها ازدواجية وانقساماً ، عانا منها» .

كانت تتجاذب فيض دائماً قوتان متعاكستان ، فقد كان على وعي تلم يواجهه في مساعدة الشعب الجامع الذي يش ويموت من الاستغلال والأمراض من جانب ، كما كان يشعر بالاندفاع الشعري المجول الى التعبير عن عواطفه ، وتمجيد ذلك الحب والضيئ لتلك المشوقة الظالمة حسب النهج الروماني القديم من جانب آخر . ويدعي بعض نقاده بأن مساهمته في الحركة التقدمية قد أنقذته من الانكباب على ذاته واجترار مشاعر الشخصية ووضعت في جانبها الجماهير . ومع ذلك فلو افترض جدلاً بأن ذلك صحيح فإن أجمل نغماته الشعرية هي تلك التي يعبر فيها عن نفسه أو عن أحبابه ويستشعر فيها مرارة الحياة . فهو يشعر بما يكدر الآخرين ويثقل كاهلهم شموماً قوياً ، لأن ذلك الكدر يكدره هو نفسه ويثقل عليه . انه ذلك الاتصال الشخصي اللاواعي الذي انتج من خلاله أفضل أشعاره .

وأحياناً ما ينتقد البعض قسماً من شعره بحجة أنه شديد التقيد بالقديم وشديد الايثار في التجريد ، بينما ينتقد البعض القسم الآخر منه لصبغته التقدمية أو لافتقاره - كما يرون - التقدمية ولايناله في السياسة . ولكن هذا النقد بعيد عن قارة المد والانعصاف . إن شعر فيض لا يرفع عبارات الاعلان والترغيب الطنانة ، وإنما يعبر عن عقيدة ثابتة . لا تنادي أشعاره بنظريات سياسية سافرة على سبيل الدعاية كما لا تترنم بتلك العاطفية الهشة الرخيصة التي استراح اليها غيره من الشعراء المعاصرين . ان ما يحركه هو الشيء الحقيقي الواقعي ، الشخصي ، وكل ما هو انساني جوهري . ومن الشيء المؤكد هو أن فيض يشتغل بقضايا عالمنا الحاضر الملحة ، الا أنه لا يطرح هذه القضايا بصورة مباشرة بل بصورة شخصية . انه لا يسعى الى الهدم ، لأنه يكره الهدم وكل نوع من الطغيان ، بل أنه يسعى الى ترسيخ إيمانه بالمستقبل والبشر .

ويجد نفسه في الوقت ذاته في الحفاظ على قيم التنايلد القديمة واستخدامها في وضع شعر جديد ، وتكوين مجتمع

بالصراحة ، أما فيض فيبدو أكثر رقة ويميل الى الابعاء ، أحدهما يرسم طبيعة ينتشر فيها نور الشمس ، والآخر يرسم طبيعة تظهر تحت نور القمر المسترسل في كل مكان .

ويديهي أن الاشتراكية قد قدمت لفيض قيماً مفارقة وقيماً عملية تختلف عن فلسفة النهضة الاسلامية التي كل يحمل لوادها اقبال . كانا أفكاره أكثر ارتباطاً بعالم الواقع ، الا أن ذلك كان يزيد من صعوبة التعبير عنها فنياً ، وربما كان من الصحيح القول أن الخيال ينطلق مع الأوهام والأحلام ويلهث متباً حين يعتمد على الحقائق والواقع . ويبدو أن هذا هو سبب إقلال فيض في الإنتاج ، فهو لم يكتب سوى مجموعة محدودة من الأشعار . ويضعه محمد صادق في لفيف الشعراء الذين ينهون فقط ولا يتدفقون ويقول : « انه يفتش طويلاً في جيبه قبل أن يخرج منه قطعة نقود ، الا أن القطعة التي يخرجها في النهاية هي دائماً قطعة نقود جيدة» .

يملي شعر فيض العاطفي دائماً حيان عازمان : حبه «لامرأة خيالية» على غرار الشعر الفارسي الكلاسيكي وشعر الأردو ، ثم حبه الحقيقي لوطه والبرشيرة وتقدمها . لقد قام فيض «بتطوير تكنيك فذ بمعنى مزدوج ، وحد فيه بين الحسب والسياسة في ازدواجية غريبة كما لو كان يصور الحياة على شكلين متباينين ويسمى لذلك على الدولام الى ايجاد وفاق وانسجام بينهما» يتنازع في نفس فيض وفقاً لأقوال ف . كيرنان تصوران : الفقير الجامع الذي يقضي نومه من المرض على قارة الطريق ، ثم الحبيبة الولهانة ذات الجفون المصطنعة والمحدود للمطاة بمسحوق الزينة ، التي تتأمل نفسها في مرآة الرومانيكية الاصطناعية القديمة . هذان التصوران يمثلان قطبين منطاليسيين متعاكسين للحياة كانا يجتذبا .

تحدد هذه التناقضات ، التي كانت تطغى على فيض ، أيضاً نظرته الى المشاكل العامة التي كانت تتمرص طريق الحركة التقدمية في وطنه : النزاعات القائمة بين القديم والجديد ، بين الشعور والعقل ، بين المال والطبقات للمفكرة ، بين الفرد والمجتمع . ويقول كيرنان في هذا الصدد : «لقد وجدت الثورة العالمية المتدفقة المنظمة طريقها الى نفسه ،

قد نظم قصيدته استناداً إلى تجربة واقعية، أو أنه يتبنى بحب خفي لم أن ما يلجج به من حب ليس إلا محض خيال. لقد كان الازدواج من الأسس الرئيسية لتقاليد الغزل.

إلا أن غزل القرون الوسطى كان لا يقتصر على معالجة الحب فحسب، بل كان يوجه اللوم ويندد في الوقت ذاته بكل المبادئ والتقاليد الجامدة والمثل العليا الثابتة، والتنظيمات المقررة لدى المجتمع الإسلامي الاجتماعي ومثاليه من الإشراف ورجال الدين. وقد اكتسب الغزل سمعة وشعبية عظيمنتين في المجتمع الإسلامي بسبب مضمونه الاجتماعي ونظراته الانتقادية في الواقع الاجتماعي.

أما الحكماء الاجتماعيون فلم يكن لهم اعتراض ما على النقد الذي يطغى على ازدواج في المعنى خاصة لما يطبع لغة الغزل من مبالغة، يتعذر معها أخذ معانيه بمعناها الظاهر أو المباشر. ومن ثم تطور الغزل بالتدرج وأصبح أداة للثورة الاجتماعية موجبة ضد دعائم النظام القائم. وقد استخدم الكثيرون من الشعراء (ومن بينهم أيضاً أقبال) - في ظل الأوضاع الاجتماعية السياسية في شبه القارة الآسيوية الجنوبية - هذا الطراز من الشعر خلال الخمسين عاماً الأخيرة كأداة يستعينون بها في معركة التحرير القومية. يعمد الشاعر هكذا إلى تحويل محبوه التقليدي إلى كل مثل أعلى محبب لديه، إلى كل مثل أعلى هو على استعداد للانقطاع إليه والتضحية في سبيله، لا فارق فيما إذا كان هذا المثل حقيقياً أو لا وجود له إلا في الخيال، قائماً طامئاً ومختاراً بعبادة ييشته ومحطه له، متمبراً بذلك كنتيجة لانقطاعه ووقوف نفسه على المحبوب. وقد عبر ر. راسل عن ذلك بقوله: «إن الغزل المصري هو الشكل التقليدي الذي يعبر عن مشاعر أولئك الذين يوقفون أنفسهم على القيم التي يؤمنون بها، على الرغم من العداوة التي تقابل هذه القيم لدى أفراد جماعاتهم وطائفتهم. ويبدو على ما يظهر بأن الغزل سوف يواصل تطوره ويصبح واسطة ملائمة يجيب بها الناس على شروط حياتهم»^(١٦).

جديد. إلا أن بقايا الماضي الاجتماعي التي تغلغلت في نفسه خلال الطفولة تظهر عن غير وعي منه في مسلكه ومنحى تفكيره. وتظهر تقاليد الماضي بصورة رئيسية في الشكل الخارجي من شعره. وهو لا يتخلل في شعره أبداً عن الاستعارات والرموز المطلوبة، كما لا يتخلل عن كثر التعابير الشعرية الكلاسيكية الفارسية الموروثة. ويستخدم الأنظمة الشعرية القديمة ومقاييسها ولا يستغني عن التركيب الإيقاعي الثابت، إلا إذا دعت له لذلك ضرورة التعبير الدقيق عن أفكاره.

لم ينظم فيض أشعار الغزل في صورها التقليدية فحسب، وإنما نظم أيضاً قصائد بأسلوب عصري حديث. هذا وقد استخدم اللغة الأردنية الأدبية التي لا تربطها روابط كبيرة باللغة الدارجة المستخدمة في الحياة اليومية. وقد استخدمت هذه اللغة الأدبية المملوءة بالكلمات المأخوذة عن الفارسية والعربية في الشعر الغنائي في جميع الأزمنة، وهي لغة لا تربطها بمنعكس الحياة الحقيقية إلا الشيء القليل فقط. إلا أن فيض تمكن بنجاح من التغلب على الشقة القائمة بين الأدب والحياة، فقد كان يدرك بعمق شديد وطائفت الغزل الأردني الاجتماعي.

وكان للغزل حسبا تطور في شمال الهند في مطلع القرن الثامن عشر وظلغة اجتماعية ثابتة وواضحة. ويقول ر. راسل: «لقد كان شعر الغزل عبارة عن شكل ممتد للاحتجاجات الحماسية على عالم قد نفى الشاعر والمستمعون فيه على السواء». ولا شك أنه كان أكثر شعبية من جميع أشكال الشعر الأردني الكلاسيكية، وكان له تأثير كبير على جميع الأشكال الأدبية الأخرى، لأنه كان يملك قابلية تجاوب وانسجام، مكنته من لعب دور هام في حياة المسلمين الهنود الاجتماعية والسياسية. كان يعبر عن المواطن الشخصية القومية وبمعالج موضوع الحب الذي كان يعتبر في مجتمع القرون الوسطى حباً محرمًا فقط حسب الاعتقاد، أو أنه كان يستخدم بصورة رمزية في الحب الصوفي للخلاق عز وجل. وكان إذا ما أتى أحد الشعراء قصيدة في موضوع الحب، لم يكن بوسع السامع أن يجزم فيما إذا كان الشاعر

نور النهار المصري الحديث . . . واخترقت آلياته الشعرية خزانة كنوز أدب الأردن وغشت الحياة الحقيقية الصاحبة وأصبحت تكون قسماً ثابتاً من النهضة الاجتماعية ومن الجهود الرامية الى تجديد شبه القارة الهندية بأكملها .

لم يكن بمقدور فطس بالتأكيد خلق لغة جديدة أو نظام جديد للأشولات والاستعارات وغيرها من المحسنات والأدوات الشعرية ، إلا أنه تمكن من استخدام الرموز القديمة بطريقة جديدة ، اما معايير اللفظية فقد ظلت على حالتها الأولى تقتضي بالعرف الموروث ، إلا أن معانيها قد تحولت الى معان سياسية . وقد مكنته دراساته للأدب الأوربية ، وعلى الأخص للأدب الانجليزي ، من ادخال تجديد ذي أثر بعيد على الصور الشعرية القديمة ، وهو ما يعني أيضاً تجديد التقاليد الشعرية في اللغة الأردنية واللغة الفارسية . لقد خلق على الرموز الكلاسيكية معان جديدة مستمدة من الزمن الحاضر .

تكون أشعار الغزل قسماً هاماً من أعمال فطس ، وتتوغل في سائر أشعاره الكثير من المفاهيم المشتقة من هذا التراث الشعري ، وعلى الأخص مفهوم العشق ، وبالرغم من أن يحب « الغزل » ويملك حاسة قوية تجاه الشكل ، فقد كان يدرك تماماً صعوبة تطوير التواحي المختلفة للواقع الاجتماعي بواسطة الموضوعات والأشكال المتواضع عليها في الشعر الكلاسيكي . كان يرى بوضوح استحالة التعبير عن الواقع بالرموز والاستعارات المتحصنة لأنها غير صالحة للتعبير عن الأفكار المصرية ، كما أنه ليس بإمكان المصطلحات الأدبية القديمة أن تعبر بسهولة عن مشاعر الانسان المصري . كان يشعر بأن كل شكل أدبي ثابت ينفلق عن جانب عظيم من الحياة ، وأن الكثير من مسائل الحياة المصرية لا تجد مكاناً لها في عالم العشاق الخيالي أو في عالم شارب النمر ولا تتناسب مع هذه العوالم البعيدة . في أشعاره المتأخرة تخلص فطس من المشاهد والزخارف للمسرحية القديمة وغشى

الرمز	المعنى التقليدي المقرر	المعنى الجديد
الحب (عشق)	حب المرأة المحرم العام غير المرتبط بالزواج (عشق مجازي) حب الخالق	روح التقدم الاجتماعي
الحبيب والحبوبة (محبوب ومشوق)	فتيات «بردة» في مسورات ، لمرأة رجل آخر ، عطلة غلام جميل ، الخالق ، أحد اللؤلؤ العليا	الرجوة ، الوطن ، الاستقلال ، التحرير ، أي مثل أعلى تقدمي
الخصم (صنم)	للمشوقة	الشعب
العاشق (عاشق)	عاشق فتاة أو امرأة ، للتعبد في الله	للتعلق بالمثل العليا ، المدافع عن عقيدة سياسية
الخصم (غير)	للتنافس في الحب	الخصم السياسي ، المعارض ، العدو الاجتماعي
وصال (وصل)	السعادة	العريضة
الفرق	الفنم ، التلمة	السجن
وليمة أو مأدبة (يزم)	الاجتماع ، الحديث ، الاستقبال	للجمع
الحانة (ميناخه)	مكان الإيحاء ، ينبوع للمشاعر النقية	حركة سياسية ، أفكارها
ساقى الخمر (ساقى)	الحبيبة ، ينبوع الوحي	صديق حميم ،لمي ، صديق ثقة أو أمين سر
مكان مبارك ، هيكل (حرم)	عقيدة شكلية	اجتماع اجتماعي ، بيروقراطية عقيدة

الشرف على مراقبة السوق (عنتب) مفتش	مراتب
مرج (جمن)	المجتمع البشري
قاطف الورد (كيجين)	الطائي ، المستنل
مأزق اللوم (كرى ملامت)	الثل الأعلى الذي يستحق المساندة إلا أن قوى العالم
	الحاضرة تاهضة
	والمكان الذي توجه فيه اللوم لجيبها
	لأنه تجرأ على زيارتها

على العكس ، انهما يبعثان في نفوس القراء الشجاعة والعزم الذين لا بد منهما في احداث كل تغيير جوهري في حياة المجتمع .

ويشير الطريق الذي يسلكه فيض في الشعر بجني ثمار جديدة لشعر الأردو . انه لدليل على قوة ونمو أدب الأردو حين يعقد هذا الشعر الصلات بين التقاليد الكلاسيكية وبين التفكير التقدمي الحديث . لقد تحققت واقعية شعر فيض من خلال حياته وشجاعته التي تغلب بها على ما صادفه من مشاق .

احتفظ فيض بأسلوبه الخاص به في شعره الزملي وفي الأشعار التي نظمها على أشكال عصرية حديثة ، وتبرز في كلا اللونين معالم نوعية موسيقية خاصة طابعها التدرج كما يبرز التنوع في استخدام الألوان الرقيقة . ويقول أحد مترجميه ان أفكاره السياسية تتطابق مع ضميره الشعري في اتلاف شديد بحيث أنه في احتجاجه العنيف على الاضطهاد والاجحاف يحتفظ بوقار الترتيل ذي النغم العذب الأخاذ ' . . . إلا أن رقة شعره وما يمثل فيه من عاطفة لا يصرفان الانتباه عن مضمون رسالته الشعرية الثوري ، بل

(٣) تستند للعلوم الواردة من معبري حياته على ما نشر في هذا العدد في مصفصل شيكاغو ١ ، ١٩٩٣) ، وعلى معاينة ألفت في محطة الاذاعة ، ثم فيما بعد على مقدمة عن مجموعة فيض دست ته سنك . تم طبعا في لاهور في عام ١٩٦٥ (نقلها الى الانجليزية كارلو كويولا ومنيب الرحمن في مصفصل ١٠ ، ١٩٧٤) ، صفحة ١٣١ - ١٣٩ ، وعلى التسمية المقدم من قبل الرائد محمد اسحاق عن مصوغة فيض زلدان نامه ، دلي ١٩٥٦ ، ثم على الكثير من المصادر الثاقبة الأخرى .

(٤) الأساليب الأصلية لمؤلفة والويندي . راجع

Jammu Das Akhtar, Political Conspiracies in Pakistan Delhi 1969. s. 59 ff

دلي ١٩٦٩ ، صفحة ٥٩ وما بعد .

(١) لا يعرف تاريخ ميلاد فيض أحمد على وجه الدقة وتقول زوجته «أليس ، وبأن والدته لا تذكر تاريخ مولده بالفيض ، ولهذا فقد استند على المعلومات التي أدلى بها عنه في هذا العدد ، وذلك لحلو أية إشارة الى تاريخ مولده . راجع مذكرة السيدة أليس فيض في «مصفصل» شيكاغو ١٠ ، ١٩٧٤) ، صفحة ١٣٣ - ١٣٠ .

(٢) تم انتخاب «بريم تشنده» رئيساً . راجع التقرير الموضوع من قبل «حفنظ مالك» عن موقف فيض تجاه نوابا هذا الاقتصاد تحت عنوان :

The Marxist Literary Movement in India and Pakistan, The Journal of Asian Studies (Ann Arbor) XXV, 4 (August 1967), s. 653 ff

٤٠ ، ٦٦ (أغسطس ١٩٦٧) ، صفحة ٦٥٣ وما بعد .



لوحة زيتية من الباكستان . للطيور أنثاس . من عمل الفنان أوز مقصود .

نظرة على الأدب في السنغال

«زنجيتي ليست صخرة صماء»

سير

يشير تعبير «إفريقيا المتحدة بالفرنسية» إلى دول غرب إفريقيا التي أصبحت اللغة الفرنسية فيها هي لغة الكتابة وبالتالي لغة الأدب ، وذلك كتعبير لسياسة الاستعمار الفرنسي التي استهدفت ادماج شعوب هذه الدول في الحضارة الفرنسية ، وأنشأت لهذا الغرض في بداية القرن الحالي بالتعاون مع الكنيسة الكاثوليكية وإرسالياتها نظاماً تعليمياً فرنسياً متكاملًا .

ارتبط الأدب الإفريقي الحديث في تلك البلدان بمفهوم الزنجية Négritude ، أو قل أنه نشأ في أحضان هذه الأيديولوجية ، وقد صاغ هذا المصطلح الشاعر ايميه سيزير Aimé Césaire صاحب الديوان المسمى «كراسة عودة إلى بلدي» (١٩٣٩) .

لم تنشأ فكرة «الزنجية» في إفريقيا وإنما بين أدباء كوبا وهايتي والدومينيكا وغيانا ، على أن الزنجية كأيديولوجية وحركة أدبية تأسست في فرنسا ، أسسها في بداية الثلاثينات ليوبولد سنغور وسيزير وليون داماس Damas بالاشتراك مع أدباء حركة النهضة الزنجية الأمريكية لاجستون هوجز Hughes وكوتي كولن Cullen وكلوديه مكاي McCay .

ودون شك فإن أشهر رواد هذه الحركة هو ليوبولد سنغور (رئيس جمهورية السنغال حتى وقت قريب) . وسنغور من مواليد عام ١٩٠٦ ، وقد عاش طويلاً في فرنسا ، وتلقى

هناك ثقافته الأساسية ، وهو يعتبر نفسه «مولدًا ثقافياً» من حضارتي إفريقيا وأوروبا ، ومن ثم فهو يحاول التوفيق بين حضارته الإفريقية الأصلية وثقافته الفرنسية ، فعبوده ترمي إلى رفع «الصدام الحضاري» cultural clash ، وتحقيق المصالحة بين الحضارتين ، أو بتعبير آخر الحفاظ على زنجيته أو ذاتيته في إطار ثقافته الخارجية . ويشرح سنغور ذاته صعوبة هذه المعادلة ، فيقول : لقد قرر المثقفون الأفريقيون أن يواجهوا الغرب ، وأن يواجهوا ذلك العالم الذي أهدر حريتهم وسلبهم كل شيء . وكان من الصعب عليهم أن يختاروا أيديولوجية نشأت في أوروبا مثل الماركسية ، فقضيتهم الأساسية هي «المعصرة» ، ومن ثم اختاروا لأنفسهم تحت هذه الظروف مذهب «الحضارة المالية» ، رافعين بذلك راية «الإنسانية» والتمايش المشترك مع جميع الشعوب ، مستهدفين أن يعيدوا إلى الأفارقة وعيهم بأنفسهم وبشخصيتهم الحضارية .

كان حلم الأدباء الأفارقة في تلك المرحلة التي ازدهرت فيها أيديولوجية أو فلسفة الزنجية هو - أن تتسع الإنسانية لهم ، وأن يحتلوا مكانهم في العالم ، وأن يكشفوا النقاب عن مآسائهم وأيضاً عن قواهم الخفية وعن قدراتهم وآمالهم . ومن ثم كان اتجاههم إلى «الشعر» كأكثر وسائل التعبير عاطفية وكثافة وقدرة على الانفعال والاحساس بالذات وعلى التعبير على الروح الجماعي . فالفلسفة أو الفكرة الزنجية تعلم بيوتويا الاخاء بلا حدود ، وتطلع إلى «إنسانية أكثر إنسانية» ، وتستخدم الفرنسية كوسيلة للتعبير .

على أن فلسفة «الزنجية» هذه كما يعبر عنها سنغور قد

تعرضت للكثير من النقد . ويذهب النقاد الأفارقة الى أن سننور يجري وراء الكثير من التصورات الرومانسية الكاذبة وأنه بمقلته عن «عاطفية الأفريقي» وعقلانية الأوربي» يقتضي نفسه بذلك الأحكام السلبية المسبقة التي أطلقها الاستعمار في وجه الأفارقة .

وأياً كان الأمر فقد تنبر وجه الأدب الأفريقي الفرنسي منذ قيام حركة «الرنجيه» ، تنبر خلال صراع تلك البلدان مع الاستعمار الفرنسي في الحسينات ، وانتقل التعبير من الشعر الى النثر ، ومن المعاطفة الى النزعة التحليلية الواقعية ، وفي تلك الفترة اشتهر الروائي السنغالي سمين لوسمان Ousmane Sembene والكاميريوني الكسندر بيدي Alexander Biyidi واثيبي شنو أشيبي Achebe

وحين نتحدث في التالي عن الحركة الأدبية في السنغال في المرحلة الراهنة ، بعد عقدين من حصول السنغال على استقلالها فمن الطبيعي أن يعود الحديث أيضاً الى بدايات هذا الأدب . ثم إن الأدباء الشبان في السنغال يحددون موقفهم الأدبي أيضاً بالنظر الى أيديولوجية «الرنجيه» أو فلسفة التوفيق بين الحضارتين .

أحدثات عن الأدب في السنغال

كانت «إفريقيا» هي شعار معرض الكتب الدولي بفرانكفورت عام ١٩٨٠ ، وفي هذا الاطار نُظمت أيضاً ندوة ثقافية بعنوان «وظيفة الأدب الأفريقي الحديث» ، وقد شاركت السنغال في المعرض والندوة بوفد كبير من الأدباء المعروفين والناشئين ، وكانت جائزة المعرض الخاصة من نصيب الأدبية السنغالية الناشئة مارياما با Mariama Ba وروايتها الأولى خطاب طويل Unesi Lettre longue . وكان لذلك الاهتمام والتقدير صده وأثره المعنوي ، فهو يعني أن أوربا تأخذ هذا الأدب مأخذ الجد وتفتح له أبوابها . ولكن هذا ليس إلا جانب واحد من الصورة ، فالجانب الآخر هو الرجوع الواضح عن التطلع الى أوربا والاهتمام المتزايد بالتراث الذاتي الأفريقي ، وقد عبر عن ذلك أحد الكتاب الأفارقة في ندوة فرانكفورت المذكورة بقوله : «لم يعد هناك ما نستطيع أن نتعلمه من أوربا» . وقبول هذا القول بالاستحسان والتصفيق . وبإيجاز فإن النظرة الى أوربا قد

أصبحت الآن غيرها في الماضي ، قد أصبحت نظرة نقدية صارمة كما تعبر عن ذلك مؤلفات الأدب السنغالي في الآونة الأخيرة .

ففي رواية «الأبيض والأسود» Le Blanc du Nègre يعري الكاتب «مبي كيب» Mbaye Kebe سياسة «مساعدت التنمية» في السنغال من ظاهرها البراق ويضمها موضع الاتهام .

تقف أوربا الآن أمام محكمة الأفارقة ، وتوجه اليها التهم والشبه دون حدود . ففي مقدمة مسرحية «القسام» Le Serment يكتب الأدب الشاب «بيلال فال» Bilal Fall : «علينا أن نفصل تماماً عن النموذج الأوربي . ان انتظرنا حتى عام ٢٠٠٠ سيكون قد فلت الأولين ، فحتى ذلك ستكون الدول الغنية (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وغرب أوربا) قد أحكمت قبضتها علينا ، بحيث قد لا نجمع عن إبادتنا تماماً من أجل الحفاظ على مصالحها في بلادنا ومن أجل الاستيلاء على ثرواتها» - وقد يدesh المرء حين يعلم أن هذه المسرحية قد عرضت في العام الماضي في العديد من المدارس العليا في السنغال .

تعم هذه النظرية الراديكالية الشباب والطلاب والتلاميذ بوجه خاص ، ففي إحدى الندوات التي نظمها معهد جوته بالاشتراك مع الأدب السنغالي «كيب» أمام طلاب معهد المعلمين المالي بمدينة سان لوس ، حيث دار الحديث حول «الاهتمام الحاضر بالأدب الأفريقي» وحول «الأدب الأفريقي وقضية الالتزام» . كان الاستحسان على الدوام ملحوظاً في كل مرة يوجه فيها «كيب» نقده اللاذع الى النفوذ الفرنسي الكبير والى أيديولوجية «الرنجيه» والى النتاج الشعري لهذه الأيديولوجية . بل إن هذا النقد قد لاقى - في ندوة تالية بالمركز الثقافي الفرنسي بسان لوس - تأييد المدرسين الفرنسيين العاملين بالمدارس الثانوية . وكانت وجهة هؤلاء أن أدب ليوبولد سننور الذي يدرس في الفصول العليا من للمدارس لا يوافق مدارك التلاميذ وأذواقهم وتطلعاتهم .

والقضية بالنسبة لـ «كيب» ليست قضية «سننور» وأدبه وإنما هي قضية المدرسة الأدبية التي تقفني أثره وتقلده . ففي رأيه أن أيديولوجية «الرنجيه» قد أصبحت وسيلة

الشعبية الأوربية والفرنسية التي تدرس في المدارس السنغالية والتي يستوعبها التلاميذ في سن مبكر عن ظهر قلب وكيف ان الكثير منها يرتكز على قيم نفسية واجتماعية تناقض القيم الأساسية الحضارية للمجتمع الافريقي .

استيعاب الأدب الافريقي في أوروبا

يختلف منظور الأفريقيين الى الأدب عن منظور الأوروبيين ، ويعود اختلاف النظرة الى اختلاف المعايير والتوقعات الناتجة عن اختلاف الأصول الاجتماعية التاريخية . ومن هذا الوجه يوجه اتحاد كتاب السنغال النقد الى الطريقة التي يستوعب بها الأدب الافريقي في أوروبا . فدور النشر الأوربية تفضل على الدوام الكتاب المعروفين والموضوعات المطروقة وتجنب ما هو غريب أو جديد ، ومن ثم يأخذ الأدب الافريقي في صورة مبنيها طريقه الى أوروبا ، أما إفريقيا من الداخل فتظل معجولة ، لأنها شي جديد أو مجبول . وفي ظل ذلك يترجم كتاب مارينا با «مصر المرأة الافريقية» وبهمل كتاب أميتا سنو فال «إضراب الشحاذين» La Grève des Bâtis ، على الرغم من أن هذا الكتاب يعالج موضوعاً حساساً وهاماً في المجتمع الافريقي ألا وهو موضوع «الشحاذين» ، في هذه الرواية يضرب الشحاذون عن ممارسة «مهنهم» احتجاجاً على ما يعانونه من شدة وقسوة وإزدراء ، ومن ثم يوقعون المجتمع كله في ورطة كبيرة إذ هم يذكررون الناس بفريضة الزكاة التي لا يؤدونها .

يطرح الأدباء الأفارقة العديد من الأسئلة عن السبل والقنوات التي يتم من خلالها نقل الأدب الافريقي الى اللغات الأخرى : كيف يتم الاختيار ؟ وهل يرجع في هذا الاختيار الى الكتاب الافريقيين أنفسهم ؟ لماذا لم تترجم أعمال صكاتب كيب مثل «شيخ البنود» Ch. Aleou Ndao لما لم تصادف رواية ماليك فال «الجرح» La Plaie أي اهتمام ؟

للاجابة على هذه الأسئلة يحتاج الأمر الى اجراء بحث مستفيض عن الشروط وعن القنوات التي يتم خلالها نقل الأدب الافريقي الى اللغة الألمانية والى اللغات الأوربية الأخرى . على أننا نستطيع أن نقول : إن الشرط الأساسي لاستيعاب الأدب الافريقي في ألمانيا أن يجمع هذا الأدب

تستخدم لتكريس التبعية السياسية لفرنسا . ولعل المنظر التالي من رواية «كيب» المذكورة من قبل («القسام») يوضح ذلك : في هذا المنظر نرى الخبير الفرنسي جان ليكون يلقي قصيدة من نظمته . وهو يلقي أبياته ويتطلع الى قصر رئيس الجمهورية وكأنه «يهدف الى أن يأسره بسحره وأن يلغقه بفيروس الرجل الأبيض» . وبعد ذلك يعقب رئيس الجمهورية على هذه القصيدة بقوله : «يا لها من قصيدة ! انها زهرة من زهور اللغة الفرنسية ، يجب أن نخلدها لهذا البلد ، الذي يكتر فيه اللطخ عن اللغات المحلية القوية . علينا أن نحافظ على اللغة الفرنسية . هذه هي رسالتنا» .

إن تحقيق هذه الرغبة ، وهو المحافظة على اللغة الفرنسية ، يعكس الكثير من قضايا التغريب والاستلاب الحضاري في السنغال . وهذه قضية شديدة التعقد . ففي جولتنا داخل المركز الثقافي الفرنسي بسان-لويس في إحدى الأمسيات ، كانت الدار مزدحمة بالقراء من الشباب من مختلف الأعمار ، وقد ازدحم بهم المكان بحيث اضطر البعض منهم الى أن يقعي على الأرض أو يجلس على درجات السلم . وكان من الملاحظ أن جميع الكتب كانت تكون مهلهلة من كثرة الاستعمال ، وهي كتب أدبية وعلمية ، أوربية وإفريقية . وكما تبينا فإن معدل الاستمارة من مكتبة المركز الثقافي يفوق مثيله في البلدان الأوربية . ومن هذا المركز ترسل الكتب الى جميع بقاع السنغال . فهل هذه وصاية حضارية أم مساهمة حضارية في تنمية هذا المجتمع الناشئ ؟

من المثير أن تصور ضياع الصبغة الحضارية الفرنسية من هذا البلد ، على أن هذه «التبعية» تستوعب الآن عن وعي وادراك بدرجة لم تعرف من قبل . وكان هذا واضعاً من ندوة شارك فيها كاتب هذه السطور عقدت بجامعة Mutant بجزيرة Goree . وتحفل هذه الجامعة مبنى دير قديم وقد نبعت هذه الجامعة من فكرة صاغها روجر جراودي Garaudy تنطلق من أهمية الحوار بين الحضارات Dialogue des Civilisations وتستهدف عن طريق الحوار والتأمل اكتشاف الجوانب الحضارية المشتركة وللغايرة بين الحضارات الكبرى ، ومن ثم رفع مستوى الفهم للتبادل . دار الحديث في هذه الندوة عن تلك الأساطير والخرافات

Match يعرض فيها كاتيبها طائفة المريدين بالسنگال وبتهم مؤسس هذه الطائفة «لما دو باب Bamba وخلفاء باستغلال الدين كوسيلة للثراء على حساب الفلاحين وبتهمهم باستغلال زراعة القول السوداني . ويصف كاتب هذا المقال جابر لارتاجوي J. Lartaguy «المريدین» بأنهم متعصبون مشاغون وعملون ، وانهم يحاولون توسيع رقعة نفوذهم على حساب طائفة Tijane وانهم يتطلعون بمساعدة ليبيا الى الاستيلاء على السلطة في البلاد .

كان رد فعل صحيفة «الشمس» اليومية Le Soleil التي تصدر في العاصمة السنغالية شديد العنف . وتعاقبت التعليقات والتصويبات على هذا المقال بحيث احتلت حيزاً رئيسياً من نسخة الجريدة الصادرة في ١٢ - ١٤ ديسمبر ١٩٨٠ ، وكان من بينها تعليق بقلم «دج بو كا» Djibo Ka مدير مكتب رئيس الجمهورية يقول فيه : «إن طائفة المريدين مثل بقية الطوائف الاسلامية تساهم بنصيب حيوي من أجل تطوير المجتمع السنغالي وترقية مستوى التعليم فيه . ثم إن تعاليم هذه الطائفة التي تؤكد أهمية العمل والاجتهاد الفردي ، تتفق تماماً مع التناقضات السياسية والاقتصادية والحضارية للرئيس سنغور ومع ما يطالب به باستمرار من أجل تدعيم استقلال وتطوير البلاد» .

إن عنف رد الفعل على المقال المذكور له من الدلالة بمكان ، فهو يوضح الحساسية الكبيرة التي تميز الرأي العام السنغالي ، كما يوضح أن وحدة السنغال تقوم على الالتئام والموازنة بين العناصر الاسلامية العربية والأوربية الفرنسية . وإذا ما عدنا الى موضوعنا وهو الأدب السنغالي الحديث ، فمن الواضح أن هذا الأدب هو أيضاً مرة لهذه العناصر المختلفة التي تتكون منها الشخصية السنغالية ، ومن البعب محاولة تغليب عنصر على عنصر آخر ، وبإيجاز فالأدب السنغالي الحديث هو على الدولم مجموع هذه العناصر ، بل هو في نماذجها الناجحة يؤلف بشكل أو آخر من المقومات الثلاثة الرئيسية ينبع منها ويعبر عنها ولا يتنكر لعنصر منها على حساب العناصر الأخرى . ولا جدوى من محاولة فهم هذا الأدب الافريقي الحديث دون ادراك أبعادها الثلاثة المذكورة .

بين المعروف والجديد والغريب . أما حين تكون القضايا التي يطرحها الأدب الافريقي مشابهة لتلك التي يطالبها الأدب الألماني ، فمن البديهي أن لا يقل الاحتمام بنقل هذا الأدب ، إذ لماذا كل هذا الغناء في الترجمة والنقل اذا كانت القضايا هي هي . وبالمثل حيث تكون الموضوعات للمعالجة في الأدب الافريقي شديدة الغرابة أو شديدة البعد عن مخيلة القارئ الأوربي ، فمن البديهي أيضاً أن يتردد الناشر على تقديم مثل هذه المؤلفات التي يصعب على القارئ الألماني استيعابها أو الاثمام بها .

فالخصوصية الشديدة تنف أيضاً عائناً في سبيل الفهم والاستيعاب وهو ما ينطبق على الكثير من قصص الأدب «ندو» Ndao . فما حاجة القارئ الألماني أن يقرأ على سبيل المثال قصة «ندو» التي تدور حول تقديم كبش من الأكباش قرباناً على الرغم من أن هذا الكبش يحمل في جيبته بقعة سوداء تحرم ذبحه وفقاً للأعراف والعقائد السائدة ، وكيف أن هذا الفعل قد أدى الى اندثار جميع أفراد الأسرة التي قدمت عليه .

العناصر الاسلامية العربية

تبرز المقومات البيئية والاجتماعية الأصلية بترديد في الأدب الافريقي للمؤلف باللغات الأوربية . ومنذ فترة قصيرة أخرجت دار من دور النشر قاموساً فرنسياً جديداً يطالب مؤلفه في المقدمة بتطوير اللغة الفرنسية وفقاً لواقع الحياة في السنغال .

وهذا ما يذغرنا بالعنصر الثالث الهام من عناصر الحضارة في السنغال ألا وهو الدين الاسلامي والحضارة العربية . القضية إذن ليست فحسب هي قضية الملاقاة بين العنصر الافريقي والأوربي وحدها ، فكثيراً ما ينسى البعض أن السنغال تملك أدياً ثرياً باللغة العربية يعود الى الربع الأول من القرن التاسع عشر ، أي يعود الى فترة زمنية سابقة على نشأة الأدب الافريقي الجديد باللغة الفرنسية .

لا شك أن أهمية الاسلام كأحد المقومات القومية الحضارية في السنغال وكأحد المعالم الهامة للشخصية السنغالية القومية . ويبدو ذلك واضحاً من رد الفعل الذي أثارته مقالة نشرت في ديسمبر من العام الماضي بمجلة باريس ماش Paris



لوحة ريشة من الغرب . نظرة . للفنان عبد الحق سجلماسي .



لوحة زيتية من المغرب . تأملات . للفنان فريد بكلامي .

الشار

وكلل الدعاة والمصلحين لقي ميهوب معارضة شديدة . ابتداء من شباب القرية وشيوخها حتى أقرب الناس إليه : أمه وأخوته وأخوانه . اتهموه بالجلين وبأن المدينة جعلته أقرب إلى النسوان ، وبأنه وقع في حب بنت مصرية وأصبح عوده - مثلها - طلياً . ومع ذلك فقد استطاع أن يجذب حوله عدداً من المؤيدين . غير أن الدعوة الجديدة ما لبثت أن كانت موضع امتحان عسير حين وقع حادث هو القرية من أولها إلى آخرها ، ليس لأن القتل كان شاباً محبوباً مسالماً شهماً فقط ، بل لأنه تبين أن القتلة كانوا من خارج قريتنا . . . من قرية طناش الجبل المواجهة لنا .

كانت قريتنا - قبل انشاء السد العالي - شبه جزيرة طوال فصول الخريف والشتاء والرياح ، تحيطها مياه النيل من جميع الجهات ما عدا خور مليء بالرمال الناعمة بيننا وبين طناش الجبل ، طالما لعب فيه أطفال القرية في الليالي الجبلية . يجرون وراء بعضهم البعض يلعبون المسافة والاستغماية ويقعون ويقومون ولا خوف عليهم من الرمال الناعمة . لكن الويل لمن يتخلف منهم عندما يتحرك المركب عائداً إلى القرية . فالضباع تتحفر في أعلى الجبل ، تموي طوال الليل باحثة عن فريستها ، متربصة بمن تستطيع الانفراد به . هكذا حدث للولد عادل أبو اسكندر ، ولعمد أبو عوزين عامل التراحيل . . . ثم يأتي فيضان النيل كل صيف فيركب البلد ، ويمتلئ الخور بالماء وينقطع الطريق بين قريتنا - التي تصبح الآن جزيرة - وقرية طناش ، ويتنفس أهلها الصعداء ، فيسرتاحون شربين أو ثلاثة أشهر من أسرة الجرايع التي تسكن طناش . ولا عمل لها إلا الاغارة على جزيرتنا - حتى تعود المياه فتجسر ، ولم تكن هذه هي فقط فائدة مياه الفيضان ، كانت فائدتها الأهم أن أعالي قريتنا لا يتعمون في ري أراضيهم ولا في تسميدها ،

الأحقاد - كالبدور التي يذرهما أهل قريتي - لا تدفن إلا لكي تمود وتنمو . يصرون على بذورهم شهوراً وعلى أحقادهم سنين حتى تنضج الشمار وتفرخ للناسي . ما أن تشتد أعواد الذرة أو القصب وتملونق قامة الإنسان حتى يكون كل شيء قد نضج : الشمار والأحقاد ، وأوشك موسم الحصاد . فيخرج كل من له ثأر أو يرى أن الوقت قد حان لنسل عاره ويستبقي بين أعواد الذرة الفارعة الخضراء متريصاً بعدوه . . . ومن حين لآخر تسمع صوت طلقة أعيرة نارية تعقبها خشفة بين العيدان التي تنكسر بعضها تحت هرولة الأقدام المسرعة الحاربة . ثم يسود الصمت لحظات ، حتى يجد للمارة طريقهم إلى جثة الضحية ومن يدمهم أهله ، فيحملون جثة قتلهم ، لا يلنسون الشرطة ولا يتقبلون عزاء . . . فيمصرع قتلهم يستمو في قلوبهم بذرة حقد جديدة سوداء ، تمتدها الأمهات في قلوب أطفالهن سنين وسنين حتى يصبحوا شباناً قادرين على تصويب السلاح ، وتمددها الأعمام والأخوال والمعرف والبيئة .

غير أن هناك أفراداً - هم الطلائع والرواد - ، أقدر من غيرهم على مقاومة هذا التيار ، من هؤلاء عمدتنا ميهوب شاب في الثلاثين ، أتاحت له أسرته للمسورة تعليمًا مبكراً قبل أن ينتشر التعليم - الذي ساهم هو في نشره في قريتنا . لكن وفاة والده المفاجئة وعصية أسرته مناهة من إتمام تعليمه الجامعي . فاستدعت أسرته ليعود مسرعاً لينتقلد منصب العمودية حتى لا يفوز به أحد من الأسر الكبيرة الأخرى التي تنافس أسرته . لكنه عاد وقد تنفس جواً غير جو قريتنا ، جو المدينة الذي لا تنمو فيه أعواد ذرة ولا أعواد قصب ، وليبدأ الناس فيه نفث خلاقاتهم إلى المحاكم والقضاء .

كانت مياه الفيضان يعليناها بتكفل بذلك ، بل إن الحكومة كانت تعتبر أرضهم أرض جزائر ، أي غير صالحة لزراعة القطن ، فتمنعهم من حصصهم في زرع هذا المحصول الذي تفرضه على القرى المجاورة ، وبهذا تصبح لهم حرية زراعتها بأنواع المحاصيل التي لا يحتاج اليها المركز فقط ، بل تسافر على المراكب النيلية حتى تصل الى مصر أم الدنيا . وكان المسجور هو زراعتهم المفضلة ، عرفوا كيف يبدلون الجهد في العناية به ، فهو يحتاج الى وقاية خاصة من برد الشتاء ، وتلك مهارة لا يبرع فيها إلا الجارية . وفي أوائل الصيف - وقبل أن يفيض النيل - يتم تحميل عشرات المراكب في طريقها الى القاهرة لتعود بأوراق العملة الخضراء التي تستحيل الى بيوت مبنية بالحجارة - وليس بالطوب التي هي كبيت القرى الأخرى - والى أفراس وجلابيب جديدة وقفاطين وخير كثير يخزنونه لتأمين العام من سنن وسجن وفريك وكشك حتى للملوخية الجافة والباية الجافة .

أما قرية طناش الجبل فلم تكن تخلو كذلك من نعم الله . فهي ترقد في حضن الجبل . والجبل هو المكان المفضل لدى أبجدادنا الفرائضة لدفن موتاهم - ولا يزال لدينا حتى الآن نمن الأحفاد . لكنهم - على خلافنا اليوم - كانوا يدفنون موتاهم في توابيت بداخلها توابيت ، حجرية ثم خشبية ، يحفرون عليها جميعاً كتابات مصورة ملونة ويغلفونها بأقمة تصور وجوههم ، ويكل وجه عينا من الحجر الكريم ، ما أن أبصرهما سعداوي حتى صرخ حاسباً انهما لعفريت من الجرب ، ثم تماثيل صغيرة وأواني ذهبية وكانهم وضعوها خصيصاً ليأتي اليوم أهالي طناش الجوعانين فيضربون بفؤوسهم مرة بعد مرة حتى تصطدم الفأس بحجر ، وتكون لصدمة الفأس رنة كأنها ملايين الزغاريد في ملايين الأفراس . بدأ الأمر صدقة في بيت سعدولي ، وقد ظل يبيع ما أعطاه الله ، وفي حذر ، لتاجر الآثار اليوناني بالمركز الخواجه بنايوتي حتى وقعت عركة بينه وبين ابن عمه ، فوشى به للحكومة . وأسرت الحكومة لتجد أنه أحرق التوابيت الخشبية وأخفى كل ما يمكن حمله من آثار ، ولم تبق إلا التوابيت الحجرية الضخمة . وحكم عليه بالسجن سنتين عاشهما كملك . من يومها بدلت الفؤوس تبشش الأرض أملاً في سماع تلك

الربة . ولكن أهل طناش ظلوا رغم ذلك قراء يعيشون على ما يقتطعون من ملح من الجبل يبيعونه لبقالي القرى المجاورة ومنها جزيرتنا . أو يعيشون على ما يتصدق عليهم به أهالي الموتى الذين يدفون - كأجدادهم الفرائضة - في قوارب من الشاطئ الآخر يحملون موتاهم عبر النيل ليدفونهم في حضن الجبل . ثم يقبلون كل عبد ليقضوا بعضه منهم فيؤنسوا بذلك وحشتهم ، ويطلبون أنفسهم الى أنهم سيبدون بدورهم من يؤنسهم يوماً ما . غير أن بعضاً من أهل طناش ومن بينهم أسرة الجرايع لم يشأ أن ينتظر الحظ ولا أن يعيش على الكفاف فألف عصابات للسطو ، ليلاً وأحياناً نهاراً ، على جزيرتنا التي أثقلتها خصوبة أرضها ونشاط أهلها حتى ترهلوا . كما كان يستأجرهم بعض أثريائنا للقتل أخذاً بالثار . عندئذ كانوا يخرجون وقد تجردوا من ثيابهم تماماً ، أرباباً لأعدائهم وأعلاناً عن عزمهم على القتال . وكلوا أحياناً ما يقتلون ضحيتهن في وضع الثياب ، مضاعفة في إذلال أسرته ، وهم مطمئنون تماماً الى أن أعداء لن يجرؤ على أن يشي بهم ، ولم يكن أهل قريتنا جناب ، غير أن المال علمهم أن يكونوا أكثر حرصاً على حياتهم وحيات أبنائهم ، أما أسرة الجرايع فلم يكن لدى أفرادها ما يحرصون عليه ولا حتى على أرواحهم .

الحداث :

خشخشة مريبة ، تنبه ، أرفه أذنيه ، ليست خفيف الربيع تذرو بقايا التبن . قدامه العاريتان تلمسان بقايا التبن التي تغطي ما حول الجرن وتمتد الى مساحات تذوب حدودها في حلقة الليل . أيقظ أخاه الأصغر في صوت مسموع كأنه يصيح نور يشرخ شحوب الليل :

- مهرا ، مهرا .

انتفض مهرا وانفقا مستفسراً :

- هل جان موعد نوبتي ؟

- لا أنت بالكاد نمت . . لعله حيوان مفترس ، ولعله آدمي مفترس .

انقطعت الخشخشة الآن ، نباح كلاب يصل خافتاً متقطعاً حيث ترعش القرية وقد أطفأت أنوارها . السماء صافية ،

والريح نسيم متناهية. الخشخشة ذابت، ابتلعها شجوب الليل. لا قمر ولا هلال ولا عناق، لكن ثمة نجوم.. تتناثر خافته متلاثة، تسكب أشعتها الضئيلة، فتبدو.. ولا تبدو.. كومة القمح وأخشاب التورج وأطبال الحص. هذا حصاد شهر، عرقه وعرق أخيه وأبيه وأمه... ينتظران عودتهما في الصباح وقد أذيا واجبهما كما يؤديانه كل ليلة.

الخشخشة عادت، ليست وهماً أذن، سمعها مهران كما سمعها هو أول مرة وثاني مرة، ومن بعيد بدت كتلة من الأشباح المتحركة المتقدمة. إذن فهم ليسوا واحداً، وإذن فهم آدميون مفترسون. وكل محمود قد سحب بندقيته الميزر وعباها ثم صاح في صوت اختلط فيه التوجس بالشجاعة:

- من هناك؟

لم يرد عليه سوى حفيف الريح. ولكن هو وأخوه قد اتخذوا من أخشاب النورج ساتراً يحميهما من أي غدر متوقع. وظلت الكتلة المتحركة تتقدم في سواد الليل الباهت. إذن فقد وضحت نيابته، فصاح للمرة الأخيرة:

- من هناك؟

ثم غيّر مكانه بسرعة حيث انبسط خلف الجرن، وأطل برأسه مع بندقيته، ثم صوب وشد الزناد.

لم يكن ثمة مفر عما وقع. انبثت مع الرصاصة صغير حاد مقتضب وهي تثق الصمت الممت. وقد نفذت إلى أنفه راحة البارود. لملم في القرية قد سمعها. الخفره يجويون شوارعها الآن لكنهم لا يجروون على الخروج إلى العراء. لم تكن الطلقة معددة الهدف، لم يكن يقصد إلا الإعلان الواضح عن نيته في الدفاع حتى الموت عن جرنه وأنه موجود ومستيقظ ومتنبه. كيف يسرقون جرنه وهو حي، ماذا عصاه يقول لوالديه؟ كيف يواجه فاطمة؟ ثم الآن راحة عرقه وهو يسيل من تحت أبطيه متلكتاً في خط مترج، يلغظه الهواء تحت جلبابه الواسع التضفاض فيحس لسمة برد خفيفة تجتاح جسده... قشعريرة لا يدرى إن كانت برداً أم أمعاً. كان يتمنى أن يعرفوا عيب محاولتهم فيعودون من حيث أتوا

أو يبحثون عن جرن آخر بلا حارس. لكنهم استمعوا في تقدمهم الحذر البطيء. إذن فهم يعرفون أنه هناك، وقد بيتوا النية على اغتصاب جرنه. هل تراه أبو العنين الجريوي وعصابته من قرية طناش الجبل التي ترقد في حضن الجبل تحسد قرينته على زمامها الحصب؟ أم تراهم من البدو الذين يسكنون الجبل، لا يعرف أحد مكان سكنهم على وجه التحديد، لكنهم يشاهدون وهم يتدحرجون هابطين الجبل نهراً يحملون أكياس ملح اقتطعوه من برائن الكتل الصخرية.

ازدادت أشباحهم قريباً، لعلمهم ثلاثة، بل اثنان، لا بل ثلاثة. ينفصلون ويتصلون وينفصلون. وأطلق رصاصته الثانية، وكانت في المليون هذه المرة. وأعقب صغيرها الحاد صرخة خاطفة أشد حدة. وتأهب محمود ومهران لأي شيء حتى الموت، ودّع محمود فاطمة ووالديه ونطق بالشهادتين. فلما لم يتلق رد فعل سريع قرأ الفاتحة وتأهب لاستقبالهم. فلا بد أن يأخذ بثأره ميتاً قبل أن يأخذوا بأرهم. وصوب بندقيته سريعاً نحوهم، لكنه رأهم يحملون جريحيهم - فيما يرجع - ويهربون به مبتعدين. إذن فلم يقتل مصابهم وإلا لجن جنونهم وما انشغلوا في عاولة انقذاه. وأحس براحة تجتاحه، سيخفف هذا من نتائج فعلته، فلو أن المصاب مات لما انتهت المسألة عند هذا الحد، سيترصون به حتى يأخذوا بأرهم. سيكون اصحاب والديه بشجاعتهم مقرّوناً بلوم أو تأنيب. لماذا لم يعالج الأمور بطريقة أكثر حذراً؟ ماذا يمكن أن يتصرف أي شخص آخر في مكانه؟ لم يكن أمامه إلا أحد أمرين: أن يفعل ما فعل وهو الذي نبههم إلى وجوده، وإلى أنه متنبه مستعد للاقتحام، لكنهم - فيما يبدو - استغفروا شأنه وشأن أخيه واستنقلوا عزلتهما، فأثبت لهم العكس. أما التصرف لآخر فهو أن يترك لهم الجرن يسرقونه.

ما بعد الحادث:

في الصباح - بعد يومين - دق باب الحاج مكاري ثلاثة غريباء رفضوا التحية والسلام، أو الاضمار عن شخصياتهم.

- ابنكم محمود قتل ابنتنا حمدان والقاتل يقتل.

- متى كان ذلك؟

القمائل ألعابها مقامة على أربعة أعمدة خشبية . ويقدر
الترحاب الذي قوبل به أفراد العصابة حتى لأنهم بين أهلهم ،
بقدر ما أحس محمود وأقرباؤه أنهم في مكان غريب معاد
ومزدحم بالمفاجآت . ثم تولى أحد البدو نزع سلاح الفريقين
ليضمه في خيمة قريبة . جثا الجميع في شبه حلقة متسمة على
رمال صحراء ذات ليل خريفية ، محمود وأقرباؤه في جانب
وأفراد العصابة في الجانب المواجه ، وقد انضم إلى الحلقة رجال
القبيلة الصغيرة . وكانت تتوسط الحلقة حفرة صغيرة مضملة بها
آثار وقود محترق دلالة على سبق استخدامهما في مناسبات
عائلة . وقد تقدم الآن من أحضر وقوداً وضع بعضه فيها
واحتفظ ببقية - كاحتياطي - على جانب منه . ثم وضع قائلين
من طوب على جانبين متقابلين من الحفرة بحيث يسمح للريح
أن تنفذي التيران ولا تماكسها . ثم أحضر طاسة حديدية
مستديرة قطرها في حدود الشبر ذات يد واحدة خشبية
تشققت بفعل الحرارة المتكررة وحال لونها - شأنها شأن الطاسة
إلى لون كساب .

أشعل البدوي الوقود وما لبثت ألسنة اللهب أن ارتفعت بفعل
ريح هينة ، ثم وضع الطاسة فوق اللهب بحيث تكاد ألسنته
الزرقاء تمسها ولا تمسها ، وهو منك بمقبضها الخشبي ،
يقلبها حتى يمرضها للهب من جانبيها . وما لبث وهجم أن
شع شيئاً فشيئاً في غبشة المساء حتى أصبح أمر قائماً كالجمرة
المتقدة . وبالرغم من ذلك ، وكأنما لكي يثبت أنه لم يفسح
طرفاً على حساب طرف آخر ، فانه صوب إلى الطاسة بصقة
تبخر رذاذها ربما قبل أن يمس الطاسة . واستدعى محمود
أمام النار فتراص لها على وجه بدا ثابتاً شجاعاً . وسأله شيخ
القبيلة بصوت مرتفع :

- قتلت حمدان الجربوعي ؟

فأجاب في انتصاب ولكن بصوت واضح :

- مجتوش .

عندئذ جثا البدوي وقد نصب جذعه فأصبح في
مستوى محمود الذي كان جاثياً منتصب الجذع . وقرب
الطاسة المتوهجة من وجهه . وقد أدار مقبضها الخشبي
إلى أسفل - كما تقرب الحناء مرتآها من وجهها . كان
الصمت يعمم الآن فقلاً كشيء كأن الجمع المتحلق يمارس

- لا داعي للانكار .
- من قال لكم ذلك ؟
- الخبر شائع على كل لسان .
- محمود كان يسقي البائهم في الحوض القبل وعاد بها في الليلة التي تحدثون عنها .
- بل كان في الجرن ليثها .
- بل لم يكن .
- إذن بيننا وبينكم البشة .
- الولد صغير ولا . . .
- لكنه ليس صغيراً أن يقتل . . .
- لم يقتل . . .
- لا فائدة من الكلام ، قلنا البشة بيننا وبينكم .
- وهكذا أجبر الحاج مكاوي على الرضوخ .

بعد ثلاثة أيام شدوا رحالهم إلى عرب الزاوية في الطريق ما
بين قريتنا وساحل البحر الأحمر . محمود ووالده وإثنان من
أعمامه وخاله الوحيد ، وثلاثة من الجرابيع حسيهم محمود من
أقرباء القتل حمدان ، غير أنه تبين فيما بعد من أفراد عصابته .
كلهم مثله في سن الشباب ، ربما لم يبلغ أصغرهم العشرين
ولم يتجاوز أكبرهم الثلاثين . ووجههم لا تميز عن شيء .
الحاج مكاوي يتسائل في حيرة عن مدى بجاحة هؤلاء المجرمين :
يريدون أن يسلبوا الناس أموالهم ولا يجيبهم أن يدافع الحلق
عن أنفسهم . . . قرص الشمس يقترب من الأفق الغربي ،
فاستطالت ظلال القافلة باعثة على رمال الصحراء . كانت تتكون
من خمسة جمال : ثلاثة عليها محمود وأقرباؤه ، استعاروها من
جيرانهم ، والجلان الآخرين يحملان أفراد العصابة . وسحين
أصبحت الشمس أكثر انخفاصاً وأشد احمراراً ، والظلال أكثر
استطالة وأقل قتامة ، كانوا قد وصلوا إلى زلة الزاوية ، فأنخوا
جمالهم في باحة تناثرت حولها بضغ خيام وأكوام من خيلط
من القش والصفائح ، وخرج لاستقبالهم شيخ القبيلة من خيمة
لا تتميز عن بقية الخيام المضروبة حولها إلا بامتداد سقيفة من

كما خارت قوى أبيه فلم تقو ساقاته على حمله كما لم تقو ذراعاه على حمل ابنه وهو يدرك شيئاً فشيئاً هول ما حل به ، بينما نزيف الدم الذي كان قد تفجر من ظهر محمود وطلخ ثياب أبيه كل الآن قد أخذ يتلصقاً ويتخثر حتى انقطع وهمد الجسم . وكان الجيران قد تجتمعوا من الحقول المجاورة على أثر سماعهم طلقات النار ، ومشاهدتهم محمود وهو يصارع الموت . بينما حاول فريق الحاقق بالقتلة ، غير أنهم أطلقوا النار وهم يفرون هاربين حتى اختفوا عن الأنظار .

وفي مصر دفن محمود . عبرنا الحور الذي طالما لعب فيه محمود في طفولته مع أصدقائه ، ثم واريناه التراب في القرافة الخاصة بنا نحن الجزائريه ، والتي تقع في سفح الجبل المطل على قرية طناش ، حيث تسكن أسرة الجرايع التي لا يأتيها منها إلا الشر كل الشر . عند عودتنا حرصت أن أكون برفقة مهران موسى . لم يذرف دمعاً واحدة على أخيه منذ سمع النبأ الفاجع حتى فارقناه في منتصف الليل .

في المساء ، لم يكن هناك سرادق ولا تقبل عزاء في بيت الحاج مكاي ، بل تجمع كثير من شباب جزيرتنا - بعضهم أقرباء محمود وبعضهم أصدقائه - ليقروا الأخذ بشأر جزيرتنا . وحضر عمدتنا الشاب . لم يناقشهم ليلتها لأنه كان يعلم مدى الثورة التي تجتاحهم وقد وقع الحادث ظهر اليوم ودفنت ضحيته عصرًا . لكنه حضر - ولا بد - بحكم مركزه ومشاركة منه لمشاعر أسرة محمود ومشاعر أصدقائه الملتبئة ، وربما حتى تكون هناك أرضية مشتركة حين يدور حوار بينهم وبينه في يوم من الأيام .

وقد دار ذلك الحوار بأكثر من طريقة وفي أكثر من مكان . كان عمدتنا ينصح جدعان قريتنا بعدم الاندفاع والتبور وعليهم أن يسألوا أنفسهم أولاً وقبل أن يقدموا على أي تصرف ، هل سيؤدي هذا التصرف الى اسكات الآخرين ، أم سيكون مجرد حلقة أخرى في سلسلة لا تنتهي ؟ فتتراحم عليه الاجابات المحتجة .

- وهل سكوتنا سيؤدي الى كسوفهم أم يضاعف شهيتهم ؟

- بل سيتهومتنا بالجن والضعف .

قلماً وثباً مقدساً لا يجرحه من حين لآخر إلا هفيف ربح هينة تربت على ألسنة اللب لتشرتب متوجهة لحظة أو بعض لحظة . وفجأة صاح شيخ القبيلة أمراً محمود أن يخرج لسانه ، وفي هدوء أخرج محمود لسانه ليمره من أسفل الى أعلى على سطح العاصة على مرأى من المشاهدين ، كان الوجه كلفياً وحده لاغراق وجه الشاب في صدى يشبه الحريق . ومع ذلك فعين طلب منه أن يخرج لسانه مرة أخرى لم تظهر عليه أية آثار ، تولى عملية الفحص أولاً شيخ القبيلة ثم زحف محمود على الرمال على ركبتيه متجها نحو أفراد العصابة ليستوثقوا بأنفسهم بما تحقق منه شيخ القبيلة . وحين عاد الى مكانه بجوار النار أعلن الشيخ حكمه : أشهد الله أن محمود أبو مكاي بريء . فظهر الوجوم والامتصاص على فريق العصابة ، بينما سرت همهمة ارتياح بين أقرباء محمود ، والحاج مكاي يردد في شبه عصبية : ظهر الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوفاً . ظهر الحق وزهق الباطل . . . وطلب محمود كوب ماء ليبلل به طرف لسانه ، ثم ما لبث أن احتسأه على مبل وهو يرشفه رشفاً .

وقد دعا شيخ القبيلة الفريقين الى العشاء ، غير أن الحاج مكاي اعتذر بلفظ لأن مشوارهم طويل والوقت قد تأخر . كان يريد في الواقع أن يسرع بإبلاغ النبأ السار الى أم محمود ، وإن كان ما يزال يتوجس في مدى تمسك تلك العصابة بما أعلنته البشعة اليلة .

الجزيرة وما بعدها

في الظهيرة ، بعد أسبوع ، كان محمود وأبوه في الحقل ، نفس المكان الذي كان فيه محمود ليلاً منذ أيام ، ولم يتبق من الجرن الآن إلا بقايا قشور الحب من آثار التذرية . . . حين سمع دوي طلقة أعقبتها صرخة من محمود كلها لوعة وهو يستن أباه صارخاً : جتلوني يا بوي ، جتلوني يا بوي ، وهو يرفرف رفرقة الدجاجة الذبيحة وأبوه يتحننه وهو ينظر الى الأفق البعيد حيث لمح الجناة ينسحبون مهرولين . إذن لم يكن غرضهم من البشعة أن يقبلوا تحكيما بل أن يتعرفوا على وجه محمود ، وأن يتعقبوه ، وأن يفجأوه - هؤلاء الجناء - من الظهر ، فلم يجزؤوا أن يواجوه . وما لبث أن خارت قوى الشاب حتى ثقل جسده الدافئ وهو ما يزال في حضن أبيه وبين ساعديه ،

- تستضي إذن جريمتهم بلا عقاب .
- لن نعرف كيف نحمل نساءنا وأطفالنا بل وكبارنا .
- لن نستطيع أن نرفع رؤوسنا بعد اليوم ، سيطعم فينا الصغير قبل الكبير .

بل يجرؤ صوت أن يرتفع ساخراً :

- يبدو أن عمدتنا يريد أن يذهب إلى أسرة الجرايع حاملاً
- لهم كفته مسلماً نفسه إلى كرمهم مع أن القتل قتلنا .
- بل صاح آخر ذلك مرة بكلمات لا يخفى ما بها من تهديد :
- حتى لو كان القتل قتلهم ، فسنقتل من يفعل ذلك منا .

ومع ذلك فإن عمدتنا لم يأس . كان يشعر أن له رسالة في هذه البقعة الصغيرة من الأرض ، وأن الطريق أمامه ليس سهلاً ، وأن رياح التنوير لا تتم من خلال حوار . هو نفسه - قبل أن ينادر قريته - كان يؤمن بما يؤمنون ، بل هو نفسه عندما عاد بعد غريته واستشقى رائحة التراب المخلط بروت البهائم كما يستشققون ، وأكل البتاو الذي يأكلون ، وليس الجليلاب كما يلبسون ، أحس أنه يلبس أيضاً تفكيرهم ، تفكيراً ليس غريباً عنه ، فقط غلب عنه فترة كما غلب عن جليلابه ثم عاد إليه . هنا أدرك لماذا اختلف عنهم ولماذا يحس بغرته في قريته وسط أهله ، وكيف يمحو هذه الغربة : إما أن يكون مثلم وإما أن يكونوا مثله ، وبغير ذلك ستظل نفسه منقسمة على نفسها ، قدامه مغروستان في تراب قريته وروث بهائمها ، وعقله وفكره مشرب نحو سماء العاصمة ، يستشقى دخان مصانمها وعادم سياراتها ويستعيد جلسات أصدقائه الطلبة ومناقشاتهم حول السكن والمستحيل .

قصد أولاً خطيب الجامع ، رجلاً لم يجاوز الأربعين ، من أصل غريب عن القرية وإن كان قد استوطنها . عندما طلب منه معاونته في مكافحة عادة الأخذ بالثأر سرعان ما وجد تجاوباً منه ، معلناً أن الاسلام يدع التقصاص لولي الأمر ، ووعد أنه لا يدع فرصة سواه في خطبه بالجامع أو في حديثه بين الناس إلا وأوضح موقف الدين من هذه العادة الجاهلية .

وفي الوقت نفسه اتصل ميهوب بالسلطات . بالمركز والمحافظة . لاقعاهم بافتتاح مدرسة اعدادية في قريتنا بجانب المدرسة الابتدائية وأيضاً لاقعاهم بإنشاء مدرسة ابتدائية في قرية طناش الجبل . فلم تكن بها أية مدارس ، وكان على الأسر الحريصة على تعليم أبنائهم هناك - وما أقلها - أن ترسل أطفالها إلى جزيرتنا ، يذهبون ويمدون على ظهور الحمار ، وكثت عتاف الطرق كثيرة من بينها - إن لم يكن أهمها - ما بين الأسر من ثار يغري بنظف الأطفال أو حتى قتلهم كما حدث ذلك مرة . وبقدر ما لقي اقتراحه بافتتاح مدرسة اعدادية في قريتنا قبولا وإرتياحاً بل تحمساً ممن كانوا يرسلون أبنائهم إلى مدارس المركز ليواصلوا تعليمهم ، بقدر ما لقي اقتراحه بافتتاح مدرسة ابتدائية في قرية طناش الجبل معارضة شديدة . فكيف يخدم قرية العصابات والقتلة ؟ وهل بهذا يأخذ ثأراً لنا لم تصف دعاءه بعد ؟ لكن الرجل مضى في مشروعه لا يأبه للمعاصرة التي بلغت حد التهديد أحياناً . فما بدأ العالم الدراسي حتى كان هناك فصل للأولى اعدادية قد أُلحق بالمدرسة الابتدائية في قريتنا ، ومدرسة ابتدائية كاملة قد أنشئت في قرية طناش الجبل .

وكان عمدتنا يعلم أن وجود مدرسة ليس سبباً كافياً لتدقيق الأطفال عليها ، ففي جزيرتنا مدرسة ابتدائية منذ عشرة أعوام ، ومع ذلك فلا ينتظم فيها الا عدد قليل بالنسبة لمجموع أطفال الجزيرة لأن أهلهم يحتاجون اليهم في كل موسم من مواسم زراعتهم . لهذا كان لا بد من محاولة رفع مستوى معيشتهم - كما هو الشأن في المدينة - حتى يمكن الاستغناء عن الأطفال في مرحلتها الدراسة الابتدائية والاعدادية على الأقل . فدعا كلا القريتين إلى إقتناء مناحل لتربية النحل واستخلاص عسله . وتعهد لكل من يشترى صندوقاً للنحل أن يمدّه بملكات النحل بعد أن يرسل في شرائه من العاصمة . وسرعان ما تعلم فلاحونا هذه الصناعة الجديدة ، وأصبحت كالدوي يقلد فيها كل جار جاره لما تدره من دخل اضافي ، تعلموا كيف يرودون الحلايا بالاطارات الخشبية حتى يتيحوا للنحل أن يبنى أقراصه فيها . ثم أعلن عن مشروع للأوال اليدوية لتسج أقفصه وسجاجيد حائط . وظهرت مواهب أبدعت في الرسم والعمل بعد أن استجلب عمدتنا مدرسين

لهم من أعجم بأفصى الصعيد . وسمعنا أن العدوى انتقلت إلى بعض أسر قرية طلائح الجبيل وإن كان على نطاق ضيق .

واستطاع الشيخ زهران ابن عم العمدة اقتناع المسؤولين عن الوحدة الجمعة بتحويل قاعة الوحدة مساء إلى قاعة للسينما ، وتول هو تدير مقاعدها . تبرع هو والعمدة بحوالي نصف ثمنها والقادرون بالقرية بالنصف الآخر . وكان يوم الافتتاح يوماً مشهوداً لا ينسى في تاريخ قرنتنا .

وفي الصيف حوّل الطلبة مدرستهم الابتدائية والاعدادية إلى ناد لهم ، كل من يفرغ منهم - وبعضهم يروغ - من عمله مع أهله في النبط أو المنخل أو التول يسرع إلى النادي الذي زدوده بالملب البنج بنج والطاولة والكوتشينة . . . الخ .

وتحس الطيب البيطري بالوحدة لمشروع تربية أبقار الفريزيان بالقرية . وبينما كان يعرض اقتراحه - « مضاعفة الثروة الحيوانية » على حد تسميه - على عمدتنا وأعيان القرية ، سرت اشاعة في جزيرتنا ذلك يوم أن أبو العيينين الجربوعي قتل في عز الظهيرة على الطريق الزراعي المفضي إلى الحور شرقي البلدة . - وخرجت القرية كلها نحو مكان الحادث ليروا مهران أبو مكايي يرقص بعصاه منبياً في فرح شبه جنوني :

نصفنسي زمانسي وخسدت تاري
غسلت عاري بردت ناري

وال جواره أبو العيينين الجربوعي ملقى على الأرض عمداً على ظهره ورأسه تشخب دماً . وعندما تأملوه وجدوا أن الحياة ما تزال تدب فيه وإن كانت عيناه شبه مفلقتين . ورأوه يمد يده في جيب جلبابه فتوجسوا خيفة ، لكنه أخرج لدهشهم علبة دخانه التي تحوي تبعة وورق البفسرة . لف سيجارة ثم ألقى الورق الشفاف الرقيق بلماحه ، ثم أخرج علبة كبريت وشط عوداً أشعل به سيجارته ، ثم مضى يمدح بشرافة ملموحة كأنما لم يمدح منذ شهور ، ونبث دخان السيجارة بكثافة من فمه وأنفه ليتساعد فوق وجهه المتقاص في صمت . وقد ظلت الروح تدب فيه وقتاً أطول من أناسنا العاقرات أن ينظين فوق جثمانه نصف الحي نصف الميت ،

معتدات أن ذلك من شأنه أن يفتح أرحامهن المغلقة . وكان عمدتنا قد استدعى الشرطة ثم النيابة غير أنهم ما أن وصلوا حتى كفن الشقي قد أسلم الروح .

قبضوا على مهران أبو مكايي الذي اعترف بما ارتكب ، وإن علمنا فيما بعد أن جدعان قرنتنا كانوا يترصدون معه بنيائهم وعصبيهم ، فبين أبو العيينين وكثير منهم ثار ، وقد كاد يغفل منهم لولا أن خوفهم من بطشه منحهم مزيداً من القوة والتصميم ، فواصلوا ضربه بالعصي والنباتات على رأسه - تماماً كما تضرب الحية - حتى ترنح وسقط على الأرض . وقد رجا مهران شركاه أن يتركوه يتحمل وحده المسؤولية ، فقبض عليه واقتيد مكبلاً إلى سجن المركز ، مشيحاً بزراريد أمه .

في المساء أقيم سرادق صغير أمام بيت الحاج مكايي تتقبل فيه الأسرة المزله في جمود ، ولكنهم كانوا يؤزعون الشربات بدلاً من القهوة .

شخص واحد في قرنتنا تردد في الذهاب إلى الحاج مكايي ممزياً أو مهتأ . كان يدرك أن هذه العصي والنباتات موجهة إلى محاولاته ومحاولات مؤيديه . كان يحس ليلتها بالوحدة والغربة وأنه في تحتة عليه أن يتجاوزها وألا يدع للاحباط سبيلاً وأن يتماسك ليواصل ما بدأ . ونظر حوله فرأى أنه حتى أمه وأخته وزوج أخته كلما قد ارتفعت روحهم المنعوية وعادت الثقة إلى نفوسهم بعد أن كانت رؤوسهم منكسة منذ مصرع عمود . إذن فقد خذله الجميع . شخص واحد وقف إلى جواره يشجعه وإن كان خائفاً عليه : وهو زوجته . كانت تحته على أن يبقى هنا ويواصل رسالته ، وفي دخيلتها كانت تريده أن يفر من هذا المكان وأن ينجو بنفسه . وأخيراً قرر قراره على أن يذهب إلى الحاج مكايي برفقة شابين من صحابه .

هل تسرع عمدتنا وحاول أن يسبق الزمن حين أعلن الجمود للذين المهينين أنه سيقتصد خلال أيام أسرة الجرابيع حاملاً معه كفته ليضغ حداً لهذا السلسلة المتصلة من الانتقام . فوجم الرجال . وأثناء عودته حاول رفيقاه أن يقتنما - بمنطقه هو -

بالدول عن تنفيذ ما أعلنه ، فأشال هذه المحاولات مجرد اندفاعات عاطفية تتم تحت تأثير أحداث مؤقتة ، والحل الوحيد هو أن تقترب القرية من المدينة ، فيلجأ الناس الى المحاكم في فض منازعاتهم .

النهاية :

لا يعرف أحد من قتل عمدتنا . هل هم عصابة الجرايح انتقاماً لمصرع زعيمهم ، فصمموا على أن يأخذوا بثأره من أكبر رأس وأرجح عقل بقريننا ، فراح ضحية مبدأ كان هو أول الواقفين ضده .

فاذا أردنا أن نستبد العشية فلا بد أن يكون قتلته من جزيرتنا ممن يقفون ضد كل ما هو جديد ومفيد ، يخشون أن يصبروا لثلاث ثبات الأيام خطأ تفكيرهم ، فقصوا عليه قبل أن يقضي على فكرهم .

كان خارجاً من بيته في طريقه لصلاة الفجر بالجامع القريب من بيته ، حين أطلق عليه مجهول طلقة رصاصة واحدة من مسدس كاتم للصوت في طريق لا تدب فيه قدم في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح ، فلم يكتشف الحادث إلا بعد فرار الجاني أو الجناة . وقد بكته القرية كلها ، أحياءه وأعدائه على حد سواء . وكلت جنازته مشهداً رهيباً قل أن يتكرر في قريننا ، شارك فيها مشيعون من جميع القرى المجاورة .

لقد ظن البعض أن كل شيء سيتوقف بعد مصرع عمدتنا ، لكن الطلبة ظلوا يذهبون الى مدارسهم ، وواصل التحالون رفع الأقراص المملئة بالسل ووضع أخرى فارغة مكانها ، بينما استمرت الأنوال تنسج أقمشتها وسجايدها ، وأنجبت أبقار الفريزيان جيلاً ثانياً وثالثاً .



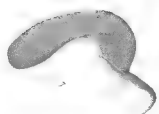
البرشته دير ، يدان ، فينا ، انسا .



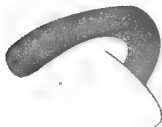
1



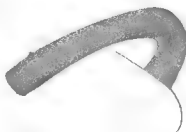
2



3



4



5



6



7



8



9



10



11



12

الرياضيات في العصر الحديث

تقوم الرياضيات في الوقت الحاضر بثلاثة أدوار ، أولاً : كأداة هامة لا يمكن الاستغناء عنها في عالم العلم والتكنولوجيا ، ثانياً : كمنهج عمل للبحث عن الحقيقة الموضوعية في إطار محدد ، ثالثاً : كفن من الفنون أو كجزء من التراث الحضاري غير المرن . والنص التالي هو مضمون محاضرة أقيمت في الجامعة الهندسية الفيدرالية في زيوريخ يحاول فيها أحد الرياضيين القاء الضوء على تلك الجوانب وعلى التفاعل بين هذه الأدوار المختلفة .

قمة جبل الثلج

عُهد إلي بمناسبة يوم الجامعة أن أتحدث عن الرياضيات ، وهذه مهمة صعبة ، فالرياضيات ليست من الموضوعات الشيقة التي تتناولها وسائل الإعلام ، نعم إن هناك أيضاً في هذا المجال الكثير من الجوانب المثيرة أو الممتعة التي يمكن الحديث عنها ، ولكن هذا يجدها عن صلب الموضوع . من غير الممكن شرح عمل عالم الرياضيات بدون الدخول في موضوعات رياضية ، بل ومن المستحيل في هذا الإطار المحدود أن نعدّد مجالات الرياضة التي تزداد في الآونة الأخيرة عمقاً واتساعاً (ولنذكر على سبيل التوضيح أن عدد صفحات مجلة «العلوم الرياضية» قد وصلت عام ١٩٧٧ إلى نحو ٢٤٠٠ صفحة من القطع الكبير ، وقد حوت ملخصات لنحو ثلاثين ألفاً من الأبحاث المنشورة في نحو ستين فرعاً من فروع العلوم ، وكذلك فعل سبيل المثال يضم قسم الرياضيات التابع للجامعة التكنيكية الفيدرالية في زيوريخ ثلاثين أستاذاً في مختلف التخصصات الرياضية ، ابتداء من الرياضة البحتة إلى الرياضة التطبيقية ، ومن العاملين في مجال التدريس وفي مجال البحوث) .

وكما ذكرت فمن الصعب على غير المتخصصين أن يدركوا ما هي الرياضة ولماذا تحظى الرياضيات بكل هذا الاهتمام .

من كان يعتقد قبل عقدين من الزمن أن المفاهيم الرياضية المتخصصة وطرق التفكير الرياضي سوف تقتصر يوماً ما ميدان الحياة اليومية بل وستدخل اللغة العامية ولغة الصحافة ، ولا يقتصر الأمر على استخدام بعض التعبيرات الشائعة مثل «القاسم المشترك الأعظم» ، بل يشمل مفاهيم أخرى مثل «العمليات المنطقية Logische Operationen» ، و «الدوال المعكوسة inverse Funktionen» ، و «النمو الأسي» ، و «نظرية الكم Mengentheorie» ، و «الجبر التحويلي Schaitz-Algebra» والبرمجة ... الخ .

من خلال العديد من الأشياء التي أجبرها العلم وحققها التكنولوجيا تبرز البنية الرياضية في شكل واضح ، ويزداد باستمرار عدد الناس الذين لا يتحدّثون عن الرياضة فحسب ، وإنما يستندون أيضاً كأداة في عملهم اليومي : في البناء والتصميم ، في الاحصاء ، وفي اتخاذ القرارات . ويتساءل هؤلاء جميعاً بدون استثناء : أعتاك جديد في ميدان الرياضة ؟

نعم ، إن الرياضة تتغلغل الآن في جميع ميادين العالم الحديث ، بل وقد أصبحت من وجهة نظر الرئي العام شيئاً هاماً . وبايجاز فالأضواء تسلط على الرياضيات بصورة لم تمرّ فيها في تاريخها الطويل ، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا : ماذا يعرف الناس حقيقة عن الرياضيات ؟

تكاد تصادف الحاسب الالكتروني في جميع المجالات بحيث لا يتطلب الأمر هنا نقاشاً ما ، فبذة الحاسبات ليست هي الرياضة ، ولكنها نبعث من الرياضة بالاشتراك مع الامكانيات التكنولوجية الدقيقة في مجال الالكترونات ، وهذه الحاسبات توسع بشكل ما من قاعدة التفكير الرياضي ، نظراً لبنيتها المنطقية الداخلية ولأهميتها في البرجة ، وفي لغة الحاسبات المتطورة ، ولأنها تسهل جميع العمليات الحسائية على جميع المستويات .

وبالمثل فإن «الرياضة الحديثة» التي تُدرّس في المدارس قد عممت جزءاً من الفكر الرياضي وفرضته على قطاع كبير من الناس ، وهذا أمر ايجابي الا أنه يعطي صورة منقوصة للعلوم الرياضية . وسنود الى الحديث عن ذلك فيما بعد .

بنيات وبديهيات

وأنتقل الآن الى الجانب غير المرئي من الرياضيات ، وبديهي أنني لا أستطيع أن أحوله الى شيء مرئي ولكني أستطيع الحديث عنه .

أعود الى ذلك التطور الهام في ميدان الرياضيات الذي بدأ في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن والذي بلغ قمته في ذلك العمل الموسوعي الذي وضعه بورباكي Bourbaki . في ذلك الحين تم التحول من النظرة الكلاسيكية التي تعتمد على الأعداد الكاملة الحقيقية الى النظرة الحديثة التي تعتمد على مفهوم البنية . في هذا المنظور الجديد يشكل المكان والعدد حالات خاصة ، وبالمثل كذلك «مفهوم المجموعة» (Gruppenbegriff) والمنطق في هذه الحالة هو الكم Menge ، ولكل كم بنية Struktur تقوم عليها ترابطات معينة . وتشكل البنيات الجبرية وفقاً للعمليات الحسائية العددية ، أما البنيات الهندسية فتشكل وفقاً لمتغيرات الحيز المكاني ، هذا بالإضافة الى الكثير من الجوانب الأخرى وخاصة فكرة الاستمرار أو التوالي ، وعادة تراعى في ذلك الكثير من الحالات الفردية التي تجرد من صفاتها الخاصة . وحيث يتعلق الأمر بتفاعل الكثير من التشابهات ، فإن مفهوم البنية يوحد من هذا التعدد . ومن أجل التعرف على السبب العميق للكثير من الظواهر المعروفة يستطيع الانسان بهذه

فالرياضة بشكل ما شيء غير ملموس ، غير مرئي ، فما نراه منها تحت الضوء وما يطبق منها وما يدرس منها على جميع المستويات ليست إلا قمة جبل من الثلج ، ولعل من معالم عصرنا أن هذه القمة تبرز بوضوح شديد عنها في أي وقت مضى . أما ما لا نراه من جبل الثلج تحت الماء فهو أكبر وأعظم مما يتخيله الانسان . ان هذا الجبل ينوص في الأعماق الى حيث لا نعرف أين ينتهي .

أهم فروع الجزء الظاهر من الرياضيات هي : التطبيقات العملية ، والحاسب الالكتروني ، والرياضة المدرسية .

تصادف التطبيقات الرياضية في كل مكان ، اعتباراً من تصميم المنشآت وحساب الأرصدة الأوتوماتيكي ، والمعدات التكنولوجية ، وأنظمة اتخاذ القرارات الاقتصادية والسياسية حتى أكثر النماذج تمقداً في ميادين البحوث الفيزيائية والبيولوجية ، بل ويشمل الأمر العلوم الاجتماعية والعلوم الانسانية والنفسية ، ويتصل ذلك في صياغة الموضوعات في قالب رياضي ، ومن المعلوم أن صياغة المسائل العملية بطريقة رياضية يساهم عادة في اتجاهها ، ولعله أيضاً من المعروف أن مثل هذه الصياغة بلا جدوى في الحالات التي لا تصل فيها الرياضة الى مستوى المسائل المطروحة للبحث وكذلك في الحالات التي لا تتناسب فيها الصياغة الرياضية مع طبيعة الموضوع المطروح للبحث . ولكن كثيراً ما ينفل البعض هذه البدييات . الرياضة هي دائماً تكوين تجريدي وليس لنا أن ننظر الى هذا التكوين كما لو كان هو الواقع الذي استغلنا منه هذا التكوين عن طريق التجريد ، أو الذي نسلط عليه هذا التكوين . والأمر أشبه في ذلك بخريطة طوبوغرافية ، فبما كانت عليه هذه الخريطة من كمال فهي ليست الطبيعة ذاتها التي تصفها هذه الخريطة . ولا يعني هذا أن نعد مسبقاً أو من البداية ما هو المقصود بمصطلح «الواقع» في كل حالة من الحالات .

أياً كانت مستويات التجريد التي أدت الى «الواقع للمعني» ، فإن الوصول الى الصياغة الرياضية قد تبعثنا من جديد كثيراً عن الهدف الأصلي ، وعلى الرغم من ذلك فقد يكون ذلك عظيم الدلالة والفائدة .

الرياضة الحديثة جاذبة لا تقاوم ، على ألا يكون ذلك هدفًا في حد ذاته ، فلا يجب أن يضع الجوهر المرئي وخاصة الجيز والعدد من جراه ذلك .

مثال من الرياضة البحتة

من الصعب على غير المتخصص أن يلم بالمقعود بتعبير الرياضة غير المرئية وأن يدرك المقصود بالمنهج القديم والحديث في الرياضة ، ولذا سأحاول أن أوضح ذلك بمثال من الخبرات للتداولية .

فلنتصور سائلاً متدققاً لكل نقطة فيه اتجاه حركة ، وإذا تصورنا أحد المستويات المارة في ذلك السائل فإن اتجاهات النقط المختلفة سوف تكون ما نطلق عليه مجال الاتجاهات المستمر . عندما يحاول المرء أن يطابق مثل هذا المجال على السطح الخارجي الكلي «لكرة» فسوف يتبين استعالة ذلك : سوف تتكون انتفاخات أو دوامات أو ما شابه ذلك (وإذا حاول المرء ذلك على امتداد دوائر طولية أو عرضية فسوف يواجه ما يطلق عليه «ظواهر فريدة من نوعها» عند القطب الشمالي والقطب الجنوبي) . وهذه نتيجة هندسية قديمة يمكن إثبات صحتها ودقتها في إطار محدد ، ويوجد مثل هذا المجال على امتداد قوس دائري ، ومن السهل والمدهش في نفس الوقت الاستنتاج الجبري لامكانية وجود مجالات الاتجاهات بصورة واضحة على سطح الكرة الثلاثية الأبعاد «الفراغ الجوي» . وإذا أمعنا النظر فسوف نكتشف وجود قوانين منظمة ، فمثلاً توجد هذه المجالات على أسطح الكرات ذات البعد الفردي ولا توجد أمثلة على الكرات ذات البعد الزوجي ، وإذا حاول المرء أن يقيم مجالين مختلفين عن بعضهما تماماً (مجالين مختلفين) فوق الكرات ذات البعد الفردي فسوف يجد بعد دراسات متعمقة أن ذلك يمكن فقط بالنسبة للأبعاد ١، ٢، ٣، ٧، ١١، ... وغير يمكن بالمرء بالنسبة للأبعاد ٥، ٩، ١٣، ... ، عند هذا الحد أصبح حب الاستطلاع الرياضي متحفزاً للقيام بدوره ، فالآن أصبح المطلوب معرفة عدد مجالات الاتجاهات التي تختلف عن بعضها تماماً (المجالات المستقلة) والتي يمكن تواجدها على سطح كرة أياً كان بعدها .

الوسيلة أن يصل إلى معارف جديدة وأن يتكرر بنات جديدة ، عادة ما تكون في البداية غير مألوفة وشديدة التحديد ، إلا أنها بمرور الوقت تصبح ملموسة ، خاصة عندما تيسر بدورها استخدامات جديدة ، ومن ذلك يتضح أن الكثير من الموضوعات المألوفة مثل «الجيز» Raum «والرقم الحقيقي» Reelle Zahl ليست ملموسة في واقع الأمر كما قد يبدو من التعود وكثرة الاستخدام ، وهكذا أمكن حل الكثير من القضايا القديمة . لم تطرح الموضوعات الكلاسيكية جانباً وإنما بدت الآن في ضوء جديد بعد أن تحررت من قيودها القديمة .

على أن الحرية الجديدة قد خلقت قيوداً جديدة ، وهي تلك التي تسمى بالطريقة البديهية axiomatische Methode فهناك قواعد أساسية محددة من أجل تكوين بنية ما وهي «البدييات» axiome . والقانون الرياضي الأول هو أن يستخدم الإنسان هذه البدييات ، وما يرتب عليها ولا شيء غير ذلك . ويشبه الأمر في ذلك ما يسمى بقواعد اللعبة ، أي تلك القواعد التي توضع والتي يلتزم بها بعد ذلك في اللعب ، وهذا التشبيه صحيح نسبياً ، إلا أنه قد يكون مضللاً ، فالإطار الذي يوضع من خلال البنيات والبدييات لا بد أن يكون ذا جوهر وجاذبية ، بمعنى أنه لا بد أن يستبطن من المعارف السابقة بطريقة عضوية ولا بد أن يحتوي الجديد وإن كان هذا الجديد في مرحلة التكوين ، وتستبطن النظم البديهية عن طريق الخبرة والحدس وإن بدت أحياناً أنها قد وضعت جزافاً ، وتكمن في هذا الجانب غير المعروف نسبياً الكثير من مصاعب الرياضة ، ويمكن فيها أيضاً الكثير من سحر الرياضة : هذا هو مجال التوتر بين الحدس وتمدد الظواهر والتطورات من جانب ومطلب الدقة الصارم من جانب آخر ، أيًا كانت الأفكار والآراء النابعة من الأحاسيس أو لحظات التجلي فإن الإطار الصارم المحدد هو في النهاية العامل الحاسم في الوصول إلى الحقيقة .

أما فيما يتعلق بالرياضة الحديثة في المدارس فإنها قد وسعت من نطاق استخدام نظرية الكم وطريقة البدييات في كثير من جوانب التعليم . ولا جدال ، فإن لوضوح لفنة

المجردة «غير النافعة» من الأعماق النافعة إلى ضوء النهار الساطع .

النظرية والتطبيق

في الماضي قيل عن «جبر بول» Boolesche Algebra أنه إحدى «هوايت» علماء الرياضة . واليوم لا يستطيع مهندسو الكهرباء أن يعيشوا بدونهِ ، كذلك ميكانيكا الأجرام السماوية Himmelsmechanik بمشاكلها الرياضية الصعبة - كيف أتيا أدھشت الكثير من كبار الرياضة قبل أن يفكر أحد في الأتمتار الصناعية . ولنرجع أكثر إلى الوراء ونذكر معادلة الموجات Wellengleichung التي درسها علماء الرياضة كثيراً والتي يسرت «لماكسويل» بعد ذلك بناء نظريته واكتشاف الموجات الكهرومغناطيسية ، أكان يمكن الوصول إلى كيمياء الكم بدون نظرية المجموعات Gruppentheorie ؟ . . ان نظرية الآلات الأوتوماتيكية تقوم أساساً على جبر الأصناف Kategorienalgebra وهو يتسم كما تعلم بدرجة عالية من التجريد ، كذلك فإن نظرية الكوارث Katastrophen- theorie (والتي كُن من الأفضل تسميتها بنظرية الأحداث الفريدة) تربط بين التحليل العام والخاص وبين الهندسة الجبرية ، كذلك علم الاحصاء وفروعه المختلفة - بدءاً من مفزى تجرية عملية إلى فك تشابكات رسم كبري - يقوم أساساً على نظرية الاحتمالات ونظرية الكتلة-Wahrscheinlichkeits- und Massentheorie

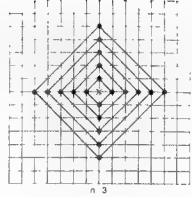
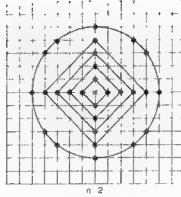
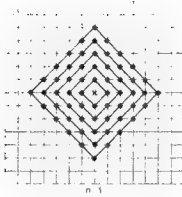
كذلك المصفوفات التي تدخل في مجال «الطرق العددية» و«التوافيق» ونظرية اتخاذ القرارات» ، ثم استخدامات الشفرة وحلها - جميعها تقوم على أساس نظرية الأعداد والجبر ، ومن الطبيعي أن هذه التطبيقات قد أثرت النظرية الرياضية الأساسية ومدتها بمزيد من الأفكار والتساؤلات وأعطتها دفعة جديدة نحو التقدم والتطور .

ويمكن أن يطول سرد قائمة التطبيقات وخلفياتها النظرية ، ومن ناحية أخرى فهناك مجموعة كبيرة من النتائج الرياضية التي لم تصل بعد إلى حيز التطبيق ، وفي السنوات الأخيرة على

ويمكن صياغة تلك المشكلة على شكل معادلات من النوع الخطي ، لكن هناك رغبة في أن يكون الحل ذا صفة عامة صالحة لجميع قيم المعاملات ، وهذه إحدى مشاكل هندسة الاستمرار العامة أو الطوبولوجيا .

وفي محيط هذا النوع من المشاكل نشأت نظريات جديدة كثيرة عبر الزمن مثل «الهوموتوبيا» Homotopie و«الفضاءات الخطية» Faserräume ، وحزم المتجهات Vektorbündel ، والأصناف المتغيرة ، ونظرية الأنواع Garbentheorie ، والنظرية العامة للمعاملات التفاضلية Differentialoperatoren ، والبنية الجبرية والهندسية للمجموعات الكلاسيكية وغيرها . ويوضح ذلك كيف أن دراسات البنية ذات الصيغة العامة جداً قد فرضت نفسها . وساهمت في إيجاد حلول لمشاكل متعددة وتبع عنها تطورات وإضافات جديدة في مجالات أخرى بعيدة كل البعد عن المشكلة الأصلية ، وبالنسبة فقد تم التغلب على المشكلة الأصلية بعد جهد كبير ، وقد وجد أن الحد الأقصى لعدد المجالات المستقلة التي يمكن إقناؤها على سطح الكرة يعتمد بطريقة غريبة على بُعد الكرة ، وهذا العدد غالباً أصغر بكثير من البعد ويساويه بالضبط في الحالات ١ ، ٢ ، ٧ فقط (كذلك ظهرت قيود غريبة بالنسبة لعدد الجاهيل وعدد المعادلات بالنسبة للحلول العامة للمعادلات الخطية) .

من الممكن شرح هذا المقطع أو هذه الفقرة من فقرات الرياضة لشخص غير متخصص وأن تطلب ذلك جهداً كبيراً ، وقد يبدي هذا الشخص اهتماماً بالمشكلة والحل كما يبدي بالنسبة لأي مشكلة ذهنية تصادفه ، وقد يستطيع تفهم الخطوط العريضة للنظريات والطرق المستخدمة ، لكن عندئذ سوف يقول بعد تردد قصير : «حسناً . . . ولكن لماذا كل ذلك . . . ؟» وقد يعلق متساهلاً أو مداعباً : «أمن أجل ذلك تحصلون على رواتبكم ؟» . . . ولكن قد يأتي بعد عقد أو عقدين من الزمن شخص ما يحتاج إلى مثل هذه الأفكار والمفاهيم والنظريات (في مثل حالتنا قد يكون هذا الشخص عالماً من علماء الفيزياء) . وهكذا تطغى الرياضيات



دوائر في مثلث هديسي Taxigeometrie من وضع كينت ايوت . وتشكل النقط «نقط تقاطع» لشبكة خطية . تقسم المسح الاقدس الى مربعات متساوية الأبعاد . والمساحة بين نقطتين هي $\sqrt{2} \cdot n$ ، و n في رقم عادي و x المساحة الأتية و v المساحة الرأسية بين النقطتين .

الرياضيات - الجزء غير المرئي من الحضارة

ولنكتف بهذا القدر من المصطلحات والمفاهيم للتخصص ، ولنتمن ما قاله هرمان فيل H. Weyl عن الرياضيات بصفة عامة : لكي يصل الانسان الى المعرفة والفهم ولكي يتبأ بما قد يكون عن طريق النماذج النظرية يلجأ عادة الى استخدام الرياضيات ، أي الى استخدام لغة الرياضيات ومنهجها الفكرية ونتائجها . ومن المدهش أن هذا البناء الفكري الذي يتسم بالتجريد لم يرق أساساً من أجل ذلك الغرض ، ومن الواضح أن التطبيقات وآثارها العملية وإن كانت

وجه خاص ظهرت نتائج مدهشة في المجالات الهندسية لللموسة والجبرية المجردة ، في نظرية الأعداد . . في نظرية الدوال والمعاملات وفي وضع أسس نظرية الكم ذاتها . لكن بقيت بالطبع معرفة هذه النتائج مقصورة على المتخصصين ، ولا يمكن في اطار هذه المحاضرة تبسيط الفهم عليها أكثر من ذلك . ومما لا شك فيه أن هذه النتائج أيضاً سوف تجد يوماً ما مجالاً للتطبيق وسوف يكون لها تأثيرات كبيرة على التفكير وعلى المجتمع ، ولكن لا يعني هذا بالضرورة أن تكون لجميع التفاصيل تبعات وتأثيرات وإن تحقق هذه التأثيرات وفقاً للأهداف الأصلية الأولى .

شاهداً على عظيمة الرياضيات إلا أنها ليست الدافع لها ،
فدوافع الرياضيات من نوع آخر .

وإذا حاول المرء وصف هذا الدافع فسوف يجد نفسه
مضطراً لاستخدام كلمات مثل «حب الاستطلاع» ، الرغبة في
المعرفة ، فرحة الاكتشاف ، أو حب اللعب ، هل معنى هذا
فملاً أنها لعبة صعبة تتطلب قدراً كبيراً من الاهتمام مثل أية
لعبة جيدة ؟ نعم هذا صحيح إلى حد ما ، لكن من المعروف
أن لهذه اللعبة أهمية كبيرة وأثراً عميقة ، وهنا تتحول اللعبة
إلى الجديدة ، ويقترب الدافع في الرياضيات من الدافع في
الفن ، وكما هو الحال في الفنون فليس من السهل تحديد ما
هو قيم وأصيل بدقة ، ويدخل في التقييم عمق التعبير وتلاؤمه
وجماله ، وكذلك فتح آفاق جديدة تعمق التفاعل مع المشاكل .
وهذا بالذات مهمة تتطلب بالضرورة الخبير المتخصص . ولكن
«فن» الرياضيين يفقد إلى شيء هام ولأن كفن غير حاسم ،
هذا الشيء هو قاعدة الجمهور المريضة . فيما عدا ذلك
فالتشابه بين الفن والرياضيات كبير ، كتواصل والمطاء
المستمر من الأساتذة إلى الناشئين ، ومن مدرسة إلى مدرسة
ومن جيل إلى جيل عبر المكان والزمان ، وما يرتبط بذلك
من رقابة شديدة تشمل للرتبة ، والكفاءة ، والبحث عن
أهداف وتطورات جديدة وتخطي ما قد بدا في وقت ما أقصى
الحدود . لقد أصبحت الرياضيات جزءاً من الحضارة .

الرياضيات التطبيقية

ربما يحتفظ من يطلق عليهم «التطبيقون» على هذه التسمية ،
فهم من يحققون الربط بالتواحي التطبيقية الهامة التي سبقت
الإشارة إليها ، ويطلب الطابع العملي المباشر على معلمهم ،
أما البحث الحر عن العلاقات الرياضية فيمترونه بعيداً عن
الواقع ، فهم يهتمون بمواضيع يحتاجها الإنسان في حالات
محددة ، ومن الطبيعي أن تتبلور عندهم مشاكل منايرة لتلك
التي تهتم بها الرياضة البحتة . وبصرف النظر عن كون الوصول
إلى الحل عن طريق استخدام مفاهيم ووسائل جديدة أو عن
طريق الرصيد الضخم المتوفر في الرياضة البحتة فمنهج
التفكير واحد ، كذلك تتماثل مقاييس الدقة والقيمة ، وعلى
هذا فأننا اعتبر أن الفرق بين الرياضة «البحتة» و «التطبيقية»
متدرجاً أو نسبي ، وأن الحدود الفاصلة بينهما غير ثابتة ، ثم

يظهر ذلك جلياً من خلال الأمثلة التي سبقت الإشارة إليها ،
فمن الممكن أن يهبط موضوع متكامل من البرج المجاني
للرياضيات البحتة التجريدية إلى عالم الواقع ، والمكس
بالمكس ، وبنفس الدرجة يمكن أن يصيب هذا التحول عالم
الرياضة نفسه

فقد يتدرج به الاهتمام من ميدان التنظير إلى ميدان التطبيق
أو يرتفع من التطبيق إلى التنظير . الأهم من التفرقة بين
«الرياضة التطبيقية» و «الرياضة البحتة» هو نوعية
الموضوع المطروح ، فليست جميع الموضوعات التي يشتغل بها
العلم والبحث على حد سواء ، وهذا أمر بدوي .

الرياضيات البحتة في مواجهة الرياضيات التطبيقية

على الرغم من ذلك فلا يمكن إنكار وجود أشكال من الصراع
بين الرياضيات البحتة والتطبيقية . كان من الممكن بعد ما
سبق التناحي عن ذلك ، لو لم يكن لتلك الصراعات جوانبها
التي تمس سياسة البحث العلمي ، ويضع ذلك من المقابلة
الشائمة بين البحث من أجل المعرفة والبحث من أجل التطبيق
العملي . ولا ينبغي أن يقلل المرء من شأن الأنظار التي
تحيط بهذه القضية . وهو ما يحملنا على التوقف هنا لحظة .

قد يردد البعض تلك المقولة المروقة «دع العلماء يختلفون
ويتشاجرون» ، ولكن جوتيه يقول أيضاً : «لرب علماء
الرياضيات يشبهون بشكل ما الفرنسيين . إذا تحدثت إليهم
ترجموا أقوالك إلى لغتهم ، ويحشد تصيح شيئاً مختلفاً تماماً» ،
وهذا ينطبق بوجه أو آخر على كل ترجمة . على أن هذا الانتهام
يوجه بكثرة إلى الرياضة البحتة . من الصحيح أن ما تصيغه
الرياضيات البحتة من مسائل يختلف كثيراً عن الواقع الذي
استخرجت أو جردت عنه ، وليس ذلك مضراً ، بل على
العكس . . . فهذا هو سر قوتها ، والحال كذلك أيضاً في
مجال الرياضة التطبيقية ، فعندما تكتسب إحدى مشاكل
الهندسة أو الطبيعة أو الاقتصاد ثوباً رياضياً فإنها بذلك
تكون قد ترجمت من مشكلة واقعية إلى لغة الرياضيات المجردة .
لأنك اختلاف كبير بين «معادلة انتقال الحرارة» و«
طوبولوجيا الشبكات» و «نظرية الأحداث المجامعة» و«
نظرية اللعب» من ناحية وبين «تمثيل المجموعات» و«جبر

للمعاملات» من ناحية أخرى ؟ ... هل الأول أكثر «واقعية» من الثانية ؟

كان هناك لوحة تعبر عن هذا الموضوع في جامعة جوتنجن التي كانت آنذاك قلعة من قلاع الرياضيات ، واللوحة عبارة عن صورة لتحف الفنان تيتسيان Tizian المعروفة «الحب السماوي والحب الأرضي» ، وتصور امرأتين أحدهما في أفقر الثياب والأخرى عارية ، ولم يمكن يعني ذلك أن المرأة العارية تمثل الرياضيات البحتة والأخرى تمثل الرياضيات التطبيقية ، بل المقصود هو أن الفارق بينهما لا يتعدى المظهر الخارجي . ومن هذا نرى أن الحديث حول هذا الموضوع ليس جديداً ، وبهذه المناسبة نذكر أن ريتشارد كورانت Courant الذي هاجر في الثلاثينات من جوتنجن إلى الولايات المتحدة الأمريكية ووضع هناك حجر الأساس للرياضيات التطبيقية ووصل بها إلى الازدهار ، لم ينس لحظة ما الوحدة الوثيقة بينها وبين الرياضيات البحتة .

درجة الأهمية

يجتنب العالم اليوم إلى التركيز على المنحى التطبيقي للرياضيات ويبدو ذلك واضحاً من الاعتمادات المالية ، وعدد الوظائف ، وبرامج تشجيع البحث العلمي ، ويرجع ذلك بالطبع إلى اهتمام الرأي العام المتزايد بالرياضيات وإلى الرغبة في صنع ما هو مفيد وهام لعالمنا الحاضر . لكن أهمية موضوع ما لا يمكن التكهن بها على الدوام وقد تكون قصيرة الأجل ، وهل معنى الأهمية دائماً أن الأمر مفيد وجوهري ؟ حقيقة أن عالم العلم والتكنولوجيا اليوم - وبصرف النظر عن الموقف الشخصي تجاه هذا العالم - يحتاج إلى التنوع الواسع في مجال العمل والدراسة والبحث العلمي ، ابتداءً من المحاولات التي تستهدف الناحية العملية إلى النظريات المجردة ولأي تدخل تسمي أو توجيه مصطلح لصالح مجالات بينهما على حساب ما يسمى بالمجالات المجردة غير النافعة سوف يؤدي بالضرورة إلى إخلال التوازن القائم ، وإلى إضعاف الناحية الإبداعية في الرياضيات . وليس من الصالح والمفيد أن تقوم سياسة البحث العلمي في دولة ما على حساب الأهمية

المحددة ، ويوجه خاص في مجال الرياضيات . وبهذا المنحى صدرت حديثاً مجموعة قرارات من اللجنة القومية الأمريكية الخاصة «بأهداف تعليم الرياضيات في الثمانينات» ، ويكتب أحد المعلقين في المقالة الافتتاحية لمجلة «الفكر الرياضي» فيقول :

«يرجع الاتجاه السائد اليوم في مجال تعليم الرياضيات كثرة التطبيقات وعلوم الحاسب الإلكتروني والاحصاء ، ولذلك أسباب عديدة ويمثل هذا الاتجاه ظاهرة صحية في حالات كثيرة وبالرغم من ذلك فإنه لا ينطو من المخاطر . فالقول بأن مواد الدراسة في المدارس والمعاملات يجب أن تتضمن مزيداً من موضوعات الرياضة العملية وقدر أقل من الموضوعات المجردة سوف يغري الكثيرين خاصة غير الرياضيين ، ومن المفروض أن نحرص على عدم الخلط بين ذلك وبين الفكرة القائلة بأن الرياضيات ذاتها يجب أن تكون أكثر تطبيقاً وأقل تجريداً . . . فامكانية التطبيق لا تعني إطلاقاً - امتياز العمل الرياضي ، فهناك موضوعات كثيرة مما جرى العرف على اعتبارها «تطبيقية» تحظى بدراسة واهتمام علماء الرياضيات ، ليس لأهميتها التطبيقية ولكن لمضمونها الرياضي القوي .

ومن المؤكد عدم وجود اتفاق عام بهذا الخصوص ، حتى بين المتخصصين ، فكيف يمكن لغير المتخصص أن يحكم على شيء غير ملموس ؟ ولتأخذ الأشياء كما هي ، فقد استطاعت الرياضيات الأصيلة أن تصمد على مر قرون طويلة من الزمن . ومن دواعي السرور أن هناك مدارس كثيرة في جميع أنحاء العالم تزدهر فيها الرياضيات بصورة متواترة ، وجامعتنا الهندسية الفيدرالية من ضمن تلك المدارس ، من واجبتنا أن نسمى دائماً في التدريس وفي البحث العلمي إلى المحافظة على الرياضيات كما يحتاجها الإنسان ، وألا يكون هدفنا هو الأهمية الوهمية ، وأن نعلم الضامين الحقيقية ولكن في نفس الوقت أن نقدم هذه الضامين والمعارف في إطارها المحدد أو المحدود ، دون أن نسمح لأنفسنا بإخراجها عن هذا الإطار .

نظرة على قضايا الطب الحديث ومشاكله

الجراحة ومن خلال تكنولوجيا الطب لا يداخله الشك . بل ان توقف القلب عن النبض لا يعني بالضرورة الموت ، فهناك بدائل (أو قطع غيار) لأعضاء الجسم والأنسجة من الدائن (البلاستيك) . وبفضل التكنولوجيا الفنية المتطورة قد أمكن التقليل من مخاطر العمليات الجراحية . وأخيراً وليس آخراً ، فقد طور الطب الوقائي وسائله العلمية ، وميادينه وأبحاثه وساهم هكذا في رفع المستوى الصحي العام .

وعلى الرغم من ذلك ، فمن باب الوهم أن نتوقع أن يوجد عالم خال من الأمراض والاسقام ، من الوهم أن نتصور نجاح الطب في القضاء تماماً على الآلام والمعانات والتناقض البدنية . فالإنسان ذاته يخلق على الدوام يوماً بعد يوم الأسطبل التي تصيب الروح والجسد . فعمل الرغم من كل الاجراءات والمجهود من أجل حماية عالم الحياة فإن المؤثرات الضارة تزداد باستمرار بفعل المدنية الحديثة والتكنولوجيا . بل ان المقومات الأساسية للحفاظ على الصحة العامة - مثل الهواء النقي والماء النقي والتربة النقية - في تناقص مستمر . وما زال مفهوم حماية البيئة من التلوث كلمة غريبة دون معنى واضح بالنسبة للكثير من السياسيين .

ومن المرجح أن ما من فرع من فروع الطب إلا ويعرف الأمراض المترتبة على ظروف المعيشة والبيئة المحيطة . نعم ان حضارتنا تتجه الى تخفيف الأعباء الجسدية عن الانسان ، ولكن حتى أيضاً هذا المنحى يحمل في طياته الكثير من الأخطار . فالعمل الذي يتطلب مثلاً المراقبة فحسب ، والذي يتم آلياً بدرجة أو أخرى ، يتطلب بطبيعته الكثير من التركيز والانتباه ، وتبعاً لذلك هو الارهاق النفسي ، فمصدر الارهاق هو الاجهاد العقلي وقلة الحركة والنشاط البدني . وينظر الكثير من الأطباء الى هذين العاملين كمصدرين للمرض . أي أن نفس المدنية التي تخفف عنا أعباء العمل

لا جدل في أن الطب قد أحرز في هذا القرن انتصارات ضخمة ، ولا نعرف حقبة سابقة من حقب الطب قد حققت ما حققتها الحقبة الحالية من انجازات واكتشافات . فمن قبل عشرين عاماً كانت نسبة الوفيات في ألمانيا بفعل الأمراض المعدية هي فرد من بين خمسة أفراد . أما اليوم فقد أصبحت نسبة الوفيات بهذه الأمراض : التيفوئيد ، وحصى الباراتيفوئيد ، والدوسنتاريا (زحار) ، والحمى الترمزية ، والدفتريسا ، والسعال الديكي ، والكزاز ، وحصى الأطفال ، والالتهاب الرئوي ، قد أصبحت مثيلة للغاية ، ولا تمتدئ هذه النسبة ٤ في المائة . فيفضل مركبات السلفاميد التي توصل اليها جرهارد دوماجك Domagk والبينسلين الذي اكتشفه الكسندر فليمنج Fleming ثم بفضل المضادات الحيوية المتطورة قد أمكن الى مدى بعيد القضاء على خطورة هذه الأمراض .

كانت نسبة الوفيات في ألمانيا عام ١٩٢٨ بفعل مرض الدرن الرئوي ١٢٥ شخصاً من بين مائة ألف شخص ، أما الآن فيتوقع الخبراء أن يصبح مرض السل في نهاية هذا القرن شيئاً نادراً للغاية ، وان حذر البعض من التهورين من شأن هذا المرض أو اغفال مكافحته . من يصاب اليوم بالانيميا الحادة (فقر الدم) أو بتسمم الدم أو بالالتهاب السحائي يمكن معالجته بنجاح ، مثل هذه الحالات كانت من قبل دون علاج ودون أمل في الشفاء . ومن فترة ليست بعيدة كان حياة المصاب بمرض السكر (مرض البول السكري) في العادة محدودة أو قصيرة . أما اليوم فلا تختلف أعمار مرضى السكر عن أعمار غيرهم ، ويجدر بالإشارة أن متوسط العمر المتوقع في أوروبا بالنسبة لمواليد الفترة بين عام ١٩٥٠ و ١٩٧٠ قد ارتفع بنسبة ٥٠ ٪ وبلغ بذلك ٧١ عاماً .

وخلاصة القول أن التقدم في العلاج بالأدوية وعن طريق

وتعلم من متوسط أعمارنا . تحكم علينا بالمرض . فالكثير من الكلمات المتداولة الآن مثل «العادن» (الغاز المستهلك) والمواد الضارة تعني المرض والمجزع عن العمل وانسداد أوعية القلب ، وتحلل الجسم والموت المبكر .

ويذهب البعض إلى أن نحو ١٥ في المائة من السكان يعانون من الاضطرابات النفسية والعصائية ، وأن ثلث الأمراض الجسدية يعود إلى أسباب نفسية . كانت نسبة الوفيات بمرض السرطان عام ١٨٧٥ هي ٢ في المائة ، وقد صارت عام ١٩٧١ ٢١ في المائة ، ومن المتوقع أن تتراوح هذه النسبة عام ١٩٨٠ بين ٢٥ و ٣٠ في المائة . كذلك ارتفعت نسبة الوفيات بسبب انسداد أوعية القلب أكثر من خمسة أضعاف في الفترة من عام ١٩٥٢ إلى عام ١٩٧٦ . وتبدو هذه النسبة في اطراف مستمر . ويقدر عدد المدمنين على تعاطي الحُر في ألمانيا بنحو مليون ونصف ، من بينهم الكثير من النساء والأطفال . وكان عدد المدمنين على الحُر في ألمانيا عام ١٩٧٧ هو ٢٥ ألف مواطن . ويمكن القول أن جميع الألمان يعانون من تسوس الأسنان . وليس من شك من أن جميع هذه الأمراض والأضرار ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأسلوب المعيشة الذي نسير عليه . وتذهب منظمة الصحة العالمية التابعة لهيئة الأمم المتحدة إلى أن أكثر من ٨٠ في المائة من حالات مرض السرطان هي تبعة من تبعات التقدم التكنولوجي والكيميائي الخاطئ . ومن ثم لم تعد قضية الصحة والمرض من شأن الطبيب أو من اختصاصه وحده . لقد أصبح هذا التصور بلا مضمون . يقاسم الطبيب الآن في المسؤولية الكثيرون : المؤسسات الحكومية ، ورجال الاقتصاد ، والمهندسون المعماريون ، ورجال الحكم وغيرهم .

ولكن في المقدمة تأتي مسؤولية الفرد وسلوكه ، فهي للمعول الأول في قضايا الصحة والمرض في المجتمع . وقد لخص عالم الفسيولوجيا الطبيب هنز شيفر في ندوة نظمتها الأكاديمية الانجليزية في هيدلبرج هذه القضية كالآتي : «تضع يوماً بعد يوم العوامل التي تعرض الصحة للخطر ، وهي في المقام الأول عوامل تضعف لسلوك الفردي ، مثل : التدخين ، والافتراط في المأكول وخاصة في تعاطي المواد السكرية ، والكحول ، والمخدرات والمخدرات والأدمان ، ثم الطموح المرضي المفرط ، والجشع أو السعي إلى الكسب بكل الوسائل . وبطبيعة الحال فلنجمع هذه

السلوكيات الخاطئة أسباباً التي يجب أن توضع موضع الدرس . ولا جدل في أن هذه الأسباب ذات طبيعة اجتماعية ، فهي على أية حال ليست قضايا وراثية . على أن المجتمع يفرض هنا هذه السلوكيات بطرق مشابهة معقدة ، عن طريق القدوة والتقليد والتأثير من خلال وسائل الاعلام . وبسبب انعدام الحوافز الايجابية لاتباع السلوك الصحي ، وهذه قضايا تتعلق بالذهنية السائدة في المجتمع أكثر مما تتعلق بالتكوين السياسي للمجتمع . ويمكن بالوسائل الديمقراطية احداث التغيير الاجتماعي في السلوكيات .

ومن ثم كانت التربية الصحية والتوعية قضية القضايا التي تتوقف عليها صحة المجتمع . وتستهدف التربية الصحية تشئة ما يمكن تسميته «بالمريض الراشد» ، الذي يسترشد بالتعليمات الصحية ويتعاون مع الطبيب والمجتمع من أجل صالحة وصالح المجموع .

ولكن من هو هذا المريض الراشد ؟ هل هو المريض المستسلم لتعليمات الطبيب ، الذي يتناول الدواء ، ويذهب إلى الطبيب بانتظام ، ويسعى بذاته إلى استكمال معارفه الصحية والطبية ؛ أم المريض الذي يعرف حقوقه كما يعرف طبيعة ما يعاني منه من نقائص أو اسقام ؟ الواقع ان مفهوم «المريض الراشد» هو تصور خيالي أو افتراضي .

ومن جانب آخر نجد علاقة المريض بالطبيب أو نظيرته إلى الطبيب . كثيراً ما يسخر المرضى من الأطباء ويتهمونهم بالجهل وقلة الفهم والتعاطف أو التماهي . ويوجه عام يذهب الخبراء إلى أن الأطباء بعد الفحص المباشر لمرضاهم يستطيعون على الأرجح في نصف الحالات تشخيص ما يعاني منه هؤلاء من أمراض ، وفي النصف الآخر يفترضون بعض الحالات أو الأمراض العالمة . هكذا يذهب الطبيب ك . ب . توماس ، ويحاول أن يفحص ما يترتب على ذلك من نجاح أو خطأ في العلاج .

ونستطيع أن نلخص النتائج التي توصل إليها في عبارات قليلة : فهو يقسم تلك المجموعة من المرضى التي لم تحصل على تشخيص محدد بعد الفحص الأولي إلى اثنين : في حالة الفئة الأولى فهو يصارحها بأنه لا يجد ما يشير إلى المرض ولا يرى أن الأمر يتطلب علاجاً ما ، أما الفئة الثانية فيكتب لها وصفات

بعض الأدوية . ويطلب من أفراد الفئتين معاودة زيارته بعد ثمانية أيام ، إن لم يطرأ تحسن واضح على ما يعانون منه . ويقول توماس انه لم يجد فيما بعد فرقاً ما بين أفراد الفئتين من حيث نجاح العلاج ، وينتهي الى القول ان المريض الذي يتعاطى الدواء يستطيع أيضاً الشفاء دون علاج .

وانما الأجدى أن يعرف المريض ما يقصه ، وأن يعي على سبيل المثال ضرورة تعاطيه الأدوية التي قد تكون لها آثار جانبية ، الأجدى أن يدرك مثل هذه القضايا حتى يستطيع التعاون مع الطبيب ..

ولكن نقص القدرة على التعاون لا تعود الى المرضى وحدهم ، فالأطباء أنفسهم قد تنقصهم القدرة على التعامل مع مرضاهم بطريقة مقنعة أو ملائمة ، فلا يكفي أن يصدر الطبيب تعليماته الحاسمة الى المريض بالكف عن التدخين ، أو الكف عن تعاطي الخمر حتى يقلع المريض عن التدخين أو تعاطي الخمر . مثل هذه التعليمات قد لا تؤدي الى شيء على الاطلاق .

يشير الطبيب فرنر هارتمان (الأستاذ بكلية الطب بهانوفر) الى ان الثقة وحدها لا تؤدي بالضرورة الى تكوين علاقة طيبة مشرة بين الطبيب والمريض ، وإن كانت تيسر عمل الطبيب . فهي ليست ضماناً لتعاون المريض من أجل تشخيص مرضه واتباع العلاج . فالطبيب كسلطة عليا والطبيب كخبير لا يكفان بالضرورة تعاون المريض . أما العلاقة النموذجية بين الطبيب والمريض ، فهي تلك التي تسم بالتوازي ، حيث يتسم الطبيب بالصبر والقدرة على الاعتراف بالمرض كطرف هام في عملية الشفاء . فما يتصف به المريض ذاته من رشد يتوقف على تقبل الطبيب لهذا المريض . أما الجانب الآخر فهو المريض الذي يدرك مسؤوليته عن نفسه وعن أسلوب حياته والذي يعي أنه ليس بالآلة قابلة للإصلاح ، وهو ما يتطلب الكثير من التوعية والتثوير .

كأن عدد مرض البول السكري في ألمانيا عام 1٩٤٥ هو ٢٠٠ ألف مريض ، وقد ارتفع هذا العدد أخيراً في جمهورية ألمانيا الاتحادية الى نحو مليونين ، ويبلغ عدد الذين يعانون من ارتفاع ضغط الدم نحو ستة ملايين ، ومن مرض الربو نحو ٣٠٠ ألف ويعاني من الروماتزم فرد من بين عشرة أفراد .

معنى رفع المستوى الصحي في البلاد الصناعية هو مقاومة مرض السرطان ومرض تصلب شرايين القلب . وحتى الآن لم يحرز الطب في هذين المجالين نجاحاً كبيراً . فكل ٣٠ ثانية يموت في أوروبا فرد بسبب تصلب شرايين القلب . أما للسبب الثالث

المثير في هذه التجربة أن زوار الطبيب لا يذهبون اليه بدافع الحصول على الأقراص والأدوية ، فلي بسبب نهائهم على الأقراص الطبية ، كما يعتقد البعض ، بل الأمر غير ذلك . فيقول صاحب التجربة : إن ما من مريض قد اعترض على نصيحته إياه بأن الأمر لا يحتاج الى دواء . فالمرضى يتقبلون أيضاً الاستشارة دون الحصول على وصفة طبية ، وهذه علامة من علامات النضج والرشد . ولكن من هو المريض الراشد ؟ من العسير حتى على خبراء الطب الاجتماعي وصف هذا المريض وخصائصه بوضوح .

وبالتأكيد فالكثير من المرضى ينتظرون من الطبيب وصفات (روشتات) بالأقراص الطبية ، ان ذلك الورس الضخم بتعاطي الأدوية الذي استمرى في دول الغرب الصناعية هو الوجه السلبي لذلك الحق العام الذي شاع والذي ترفقه أيضاً منغلة الصحة العالمية ، ونقصد به «حق كل إنسان في الصحة» .

يعرف البعض المريض الراشد بأنه ذلك الذي يملك قدراً من المعارف الطبية التي تجعله متطوعاً وشريكاً للطبيب للمعالج والتي تيسر الحديث والتفاهم بينهما . وميزة ذلك لا تحتاج الى بيان ، فالطبيب الذي يتحدث الى مريض عارف سيعطيه بالضرورة المعلومات الدقيقة التي تتصل بحالته ، وسيتعامل معه دون جهد .

وبالمثل فالمرضى يستفيد من هذه العلاقة . على أن المواطن العادي يتلقى في الغالب هذه المعلومات من خلال وسائل الاعلام اليومية التي تهتم عادة بكل ما هو مثير أو غريب في ميدان الطب ، في حين أن التوعية الطبية أكثر ضرورة واهمية في أبواب الطب المألوفة أو اليومية . فمعرفة الاجازات الجديدة في ميدان الطب بلا قيمة كبيرة بالنسبة للمريض العادي .



مقطع رأسي في الأذن اليمنى في أعلى منطقة السمح - باريس ١٩٧١ .

الخطير للموت ، وهو حوادث الطرق ، فلا نعرف حتى الآن وسيلة فعالة لمكافحة .

تحمل تقارير منظمات الصحة العالمية عن الحالة الصحية في أوروبا الكثير من الأنباء والمعلومات الفادحة ، وإن احتوت أيضاً على العديد من الإيجابيات والانتاجات . فقد تراجعت نسبة الوفيات بين الأطفال والشباب بشكل واضح خلال العشرين عاماً الماضية (انخفضت نسبة الوفيات بين المواليد من ٣٠ إلى ٣٠ مولوداً من بين ألف مولود) ، وانخفضت تملكاً من أوروبا بعض الأمراض المعدية الخطيرة ، وبالمثل تراجع نسبة الوفيات المترتبة على الإصابة بالمدى أو الطفيليات . هذا في الوقت الذي ترتفع فيه نسبة الوفيات المترتبة على الحوادث ، وعلى استخدام القوة ، والانتحار . وتعد نصف حالات الوفيات بوجه عام إلى الأمراض المتعلقة بالقلب وأمراض الدورة الدموية والأوعية .

إن الهدف الملوح لمنظمة الصحة العالمية هو أن توفر لجميع شعوب الأرض قاطبة درجة من الصحة والأمن الصحي . وهي تسعى إلى هذا الهدف منذ نحو ثلاثين عاماً ، وبالرغم من ذلك فيبدو أنه هدف صعب بعيد عن المنال في وقت قريب . فوفقاً لتقارير المنظمة فإن عدد سكان العالم الذين يعانون من الإصابة بالديدان يبلغ نحو ٨٥٠ مليوناً ولأن الموت جوعاً والموت بسبب نقص التغذية يهدد ثلث الملايين من البشر .

نعم قد تراجع بوضوح نسبة الإصابات بمرض شلل الأطفال ، ولكن من جديد ترتفع الإصابات بهذا المرض في بعض المناطق الاستوائية الحارة التي لا تتوفر فيها الخدمات الطبية . كذلك مرض الكوليرا ، فقد أمسك الحد منه ، ولكنه لم ينم بعد . أما الأمراض التناسلية فهي من جانب تراجع ببطء في مناطق ، ومن جانب آخر تنتشر من جديد في مناطق غيرها ، هذا بالإضافة إلى مرض الجذام ويليغون أحد عشر مليوناً . هذه هي الصورة الصحية العامة لسكان العالم ، وهي صورة تكثر فيها الظلال والجوانب القائمة .

أبالمع أن نقدم هنا رؤيا غريبة لا تتفق مع واقع الطب في

العالم التكنولوجي ؟ إن الحركة التي يتصف بها العالم الآن ثم الوجهات العالمية في ميادين البحث تدعونا إلى تأمل مشاكل الصحة القومية وقضايا الطب في إطار عالمي شامل يدخل في اعتباره التطور العام في العالم . ومن أجل ذلك تشارك ألمانيا الاتحادية مشاركة عملية في هيئة الصحة العالمية ، وتساهم في ميزانية هذه الهيئة بأكثر من مائة مليون دولار ، في حين أن حصة كل من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي في ميزانية الهيئة هي ٥٠ مليون دولار . يعمل حالياً بمركز الهيئة بحجيب نحو ٢٠٠٠ شخص ، بالإضافة إلى ٣٦٠٠ شخص في المواقع الخارجية للهيئة ، وتبلغ مشاريع البحث التي تقوم بها الهيئة أكثر من ألف بحث ، تمس مصالح ١٣٦ دولة .

في الوقت الذي تسعى فيه الدول النامية إلى بناء أنظمة صحية فعالة ، وفي الوقت الذي يستعان فيه في آسيا بالطرق الطبية التقليدية ، نجد الطب في ألمانيا وأوروبا عرضة للنقد الشديد ، من حيث أنظمتها وفعاليتها . وليس أدل على ذلك من النجاح الضخم الذي صادفه كتاب إيفان إيش Alish المنسوس «مصادرة الصحة» Die Enteignung der Gesundheit ، بل ولا نعرف مؤلفاً آخر قد أحدث مثل هذا الصدى بين دوائر الأطباء حتى ذهب بعض الصحف إلى تسمية صاحبه بـ«مارتن لوثر الطب» ، في حين تكيل له الدوريات الطبية الاتهامات ، فتصفه تارة بأنه إنسان طوباوي راديكالي ، وتارة أخرى بأنه شيوعي متطرف .

يمكن اختصار نظريات إيش المختلفة التي أثارت النقاش الحاد في عبارة قصيرة ، وهي أن الطب قد أصبح ذاته خطراً رئيسياً يهدد الصحة . أو كما يقول : ليس هناك وباء ينتشر بمثل هذه السرعة المذهلة في أنحاء الكرة الأرضية غير الطب . فالأطباء ووسائل التطبيب والمستشفيات ، هذه جميعاً أو مجتمعة تحدث من الأضرار الصحية والأمراض ما يفوق تلك الأضرار والأمراض التي تكلفها . فالإش يشك كلية في فعالية الطب الحديث ، وفي جدوى الطب الوقائي وأجهزته .

لقد تحول رجال الطب كما يذهب إيش إلى مجموعة من الأداريين البيروقراطيين في منظمة حرفية تحول جميعاً السكان إلى مرضى ، وكل ما أحرزه الطب الوقائي من نجاح هو ب

الرب والخوف في النفوس ، لقد أصبح الطب - كما يقول - مؤسسة احتكارية تضيق حرية المواطنين بإطراد وتدفعهم في ركابها .

ليس اليش من هؤلاء المصلحين الذين يدعون الى تعميم الطب ، بحيث يشمل بمظلة أكبر عدد من الناس ، على العكس من ذلك ، فانه يرى الطب الآن كفرع من فروع التكنولوجيا ، ويتحدث في هذا الصدد عن تكنولوجيا الطب ، وهي في نظره مجموعة من الآلات والأجهزة الطبية الباهظة الثمن فحسب ، ويقترح الاستغناء عن هذه «الطقوس الدينية» وعن سحر الأجهزة الحديثة وعدم تضيق الاموال والجهد في «عبادة أصنام جديدة» لا تعود على الناس بعائد حقيقي ، ويرى أن القسم الأعظم من الأدوية والوسائل الطبية لا يحتاج الى كل هذه الأجهزة ويمكن تسيره بتكاليف بسيطة .

وفي النهاية ، فهو يقترح تحرير مهنة الطب من طامعها الحرفي التقليدي ، وبالتالي يمارض بشدة تلك التبعية المتريدة للأجهزة والمؤسسات المختلفة التي ينساق اليها الناس بإطراد في المدينة الغربية .

لا يجانب اليش الصواب في الكثير من مأخذه على الطب الحديث وعلى الأطباء ، ولا يتكر خصومه ونقاده جدوى الكثير من النظريات والتصورات التي يقترحها . فالديديات الأولى لعمل الطبيب في تراجع ظاهر ، فمن الأطباء من يجبل الآن في غمرة التعامل مع الأجهزة والبيانات أن الحظوة الأولى في سبيل العلاج هي أن يضع الطبيب يده في يد المريض . تشغل الطبيب الآن المدد والأجهزة والأدوات عن رؤية المريض والحديث معه ، وهذا أحد مظاهر ما يسمى الآن «بأزمة الطب» .

لم يعد الطب في وعي الكثير من الأطباء غير علم تطبيقي من العلوم الطبيعية . ولا يغير من ذلك اطراد النظر الى «الطب» في ضوء علوم النفس والاجتماع . لم يعد الطب هو علم الشفاء فحسب منذ أن أضيفت اليه موضوعات الوقاية الصحية ثم إعادة تأهيل المرضى . نعم لقد أدى تطور الخدمات التكنولوجية الى تنمية إمكانيات جديدة للتشخيص والعلاج ، فمشرط الجراح الشهير لا يعمل اليوم وحده ، وإنما تسانده إنجازات تكنولوجية جديدة . وبفضل ذلك أصبحت مثلاً

زراعة الكلية عملية يومية في المستشفيات . وبالمثل زراعة أجهزة تنظيم عمل القلب .

ويتوقع الأطباء في وقت قريب للغاية الاستعانة بقلوب صناعية ، استكمالاً للأجزاء الصناعية التي يستخدمونها الآن في عمليات القلب من أجل تنظيم النبض .

وهناك الكثير من التجارب الجراحية التي تذهب أبعد من ذلك والتي تطرح العديد من الأسئلة ، بحيث يحق أيضاً التساؤل عما إذا كان من المسموح به أن يعمل الطبيب كل ما يمكن عمله . ولكن ما فائدة تلك التجارب المثيرة طالما اختلف الأطباء حول ميادين عملهم اليومي ، وحول نوعية هذا العمل وجداه . قد أثارت عملية زراعة القلب الأولى التي أجراها كريستيان برنارد الثغرات العالم ، قبل يكفي هذا وحده للحكم على جدوى أو عدم جدوى زراعة القلب ؟

ليس لنا أن نتكر أن تطور الطب في المستقبل لن يكون بدون الاستعانة بالعلم الحديث والتكنولوجيا ، ولكن الأهم أن نسأل : أيمكن أن نتخفظ في ظل ذلك التطور بنض الحياة الانسانية والمضمون الانساني الأصلي للطب . يتمدد دور الطبيب فحسب ، طالما استرشد في عمله بالحاجات الاجتماعية ، وما زال ربع الأطباء في اللبنا الانعادية يعملون في حقل الطب العام ، أي أنهم يواجون المرضى كأطباء غير أخصائيين وإنما كأطباء معالجين بالمعنى التقليدي . ولكن لا بد من اعدادهم الاعداد اللائق ومن تزويدهم على الدوام بالتقافة الطبية الجديدة حتى لا ينتهي بهم الأمر الى ممارسة الطب كما يمارسه رجل الطب البدائي في الدغل .

ان تقل الحاجة الى الوسائل التكنولوجية في ميادين البحث . ومنذ فترة غير بعيدة كانت أبعاد هذا التطور تبدو من بساط الخيال الذي يحنح اليه كتاب القصص العلمية الخيالية ، حين يتخيلون - كما فعل هينز هابر في أحد أفلامه التلفزيونية - هروب كائنات معملية دقيقة من للعامل الى عالم الأحياء حيث يعيشون فيه الدمار والحرب . ولكننا قد سمعنا منذ فترة عن عمليات الاخصاب الصناعية وعن الامكانيات المثيرة لما يسمى

بهندسة الأجنات genetic engineering ، مما يتطلب الرقابة الشديدة . وبالمثل فالمكائن وإحتمالات الطب المتطورة تتطلب درجة عالية من المسؤولية والأخلاق (فلنذكر عمليات زراعة الرأس التي يجريها الآن الدكتور الأمريكي روبرت وايت على القردة ، بالإضافة إلى قضايا العلاج المكثف وإلى التجارب التي تجري أيضاً مع الادميين) لقد أصبح الطب - كما يقول هنريش شيرجس - «قوة تلقي بأضوائها وظلالها على جميع مجالات الحياة» .

من جانب آخر ، فقد أدى شك الكثيرين في جدوى تعاطي الأقراص وفي ذلك التهاق المرضي الشديد على الأدوية والأقراص إلى ازدهار طرق العلاج الطبيعي . (ارفع عدد الحكماء الطبيعيين - أي الذين لا يحملون شهادة طبية - في ألمانيا أخيراً نحو أربعة آلاف) ، وتختلف الآراء في جدوى هؤلاء الحكماء الطبيعيين ، ولكن الذي لا يمكن إنكاره أن العلاج بطرق طبيعية على أسس علمي من الأهمية بمكان ، ومن المتوقع أن يستمر هذا المنحى في المستقبل كبدان اصنافي .

هذا في الوقت الذي تدثر فيه المعارف الطبية للتوارثة في بلدان العالم الثالث تحت ضغط الغزو المستمر للطب الحديث . قد ينظر الطبيب في الغرب بلا فهم إلى وسائل العلاج للتوارثة في المختبرات الغربية عليه ، ولكن هذا وحده لا يكفي للحكم على هذه الوسائل .

اتنا نشاهد اليوم نشوء علم جديد ، هو الطب التكنولوجي ، وذلك بفضل الدراسات والأبحاث التي يقوم بها علم عادت الشعوب .

أمضى عالم الفسيولوجيا فولف شريفن هوفل سنوات عدة بين قبائل غينيا الجديدة من أجل دراسة سلوكيات هذه القبائل إزاء المرض والموت ، وانتهى إلى أن الكثير من وسائل التطبيق والممارسة في هذه القبائل ذات طبيعة سحرية وأنها تركز على الإيمان بالجن والقوى الخارقة للطبيعة . ويعلق شيفن هوفل على ذلك فيقول : «قد تبدو العناصر السحرية في عيني الأوروبي من ملامح الطب التقليدي ، ولكنه لا يدرك أن هذه الوسائل البدائية في الظاهر تركز على معارف طبيعية شاملة

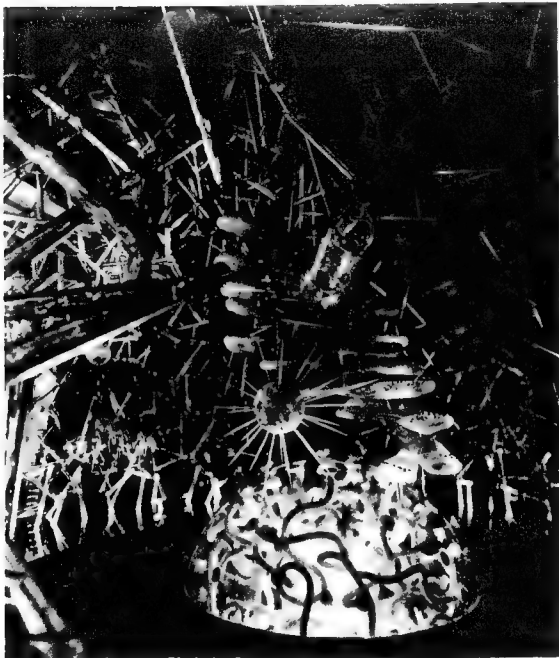
وعلى خبرات طبيعية غنية ، تدخل في عمليات التطبيق بجانب الطقوس السحرية» .

فالمعارف الخاصة بالنباتات الطبية بين هذه القبائل البدائية التي لم تنتط في حياتها معام العصر الحجري لا تقتصر على الأفراد الذين يقومون بوظائف التطبيق ، وإنما تكاد تشمل أفراد هذه القبائل جميعاً . فالكثير من الأطفال يعرفون جيداً شكل هذه النباتات ويعرفون الغرض منها . وقد استطاع هذا الباحث بمساعدة أفراد هذه القبائل أن يجمع أكثر من ٢٥٠ نوعاً من النباتات الطبية . وتستخدم أغلب هذه النباتات في علاج أمراض المعدة والأمعاء ، والحمى والزلات البردية وأمراض الجلد والأمساك . وهناك نباتات تخص النساء لمكافحة ما قد يعانون منه من أمراض ، وكذلك للوقاية من الحمل وللإجهاض (إسقاط الجنين) وللاستخدام خلال الحمل والوضع ولرعاية المواليد .

ويذهب شيفن هوفل إلى أن علماء الحضارات الغربية يستطيعون التعلم من خبرات ومعارف هذه الجماعات البدائية ، على الرغم من مظاهرها المعاصرة أو الغربية .

وليس هذا بجديد ، فالحال الحديث قد استفاد كثيراً من معارف الطب البدائي القديم ، من أمثلة ذلك تلك الأدوية الفعالة التي نقلها عن النباتات الطبية مثل الكينين والاستركتين . ومن بين ذلك أيضاً الفلوكوكسيد التي يستخدم في علاج أمراض القلب ، إلى غير ذلك من النباتات التي تستخدم في حالات سرطان الدم الحادة .

ولكن الأمر لا يقف عند الاستعارة من وسائل العلاج للتوارثة وأدوية التطبيق التقليدية ، وإنما يرى شيفن هوفل أنه من المفيد أن نتعرف على تصورات الحضارات الأخرى عن المرض والصحة فهذا ضروري «حتى يدرك الغرب ، أن واجبه أن لا يفرق هذه الحضارات بأساليب الطب الغربية دون تمييز ، ففي الطب التقليدي لهذه الشعوب البدائية يكمن جزء كبير من موروثها الحضاري ، ومن جانب آخر فمن العسير على الطب الغربي أن ينظي الحاجات الأساسية لهذه السلاسل والقبائل .



ملايين الخلايا الانسانية

عملية يومية طبيعية : « تلد الكثيرات في الهواء الطلق ، وأحياناً تحت المطر ، في حضور الأم أو الحماة التي تساند الوالدة بالفعل والقول . وتلد النساء وهن واقفات وجالسات ، على خلاف الأمر في المستشفيات الغربية حيث تلد النساء وهن راقدات ، وهو وضع يخالف الطبيعة الفسيولوجية لعملية الولادة » - وميزة الوضع الأول أن الجاذبية الأرضية الطبيعية تساند المرأة خلال الولادة ، ثم أنها تستطيع الحركة وبالتالي تستطيع تدعيم عملية المخاض (الطلق) - القضية أن هذا بعيد عن تصورنا .

ما يتم هنا بهذه البساطة ، تقوم به المستشفيات الحديثة بواسطة الأجهزة الطبية المعقدة . لقد تحول عمل الداية أو المولدة اليدوي إلى فرع مستقل من فروع الطب ، إلى فرع يتطلب درجة عالية من الدراسة والتخصص . منذ سنوات قليلة كانت صالة الولادة المجهزة بجميع أجهزة الرقابة والمتابعة حليماً من أحلام التكنولوجيا ، أما الآن فقد أصبح الحلم واقعاً . فالرقابة المكثفة للأم والطفل خلال عملية الوضع تشمل قياس النبض والتنفس ودرجة الحرارة ، والدورة الدموية ودقات القلب . ويقوم في بعض الحالات - كما هو الأمر في المستشفى الجامعي بمدينة هيدلبرج - كمبيوتر مركزي بمراقبة جميع المعلومات التي ترد من صالة الولادة .

لا جدال في أن هذه المتابعة الدقيقة بالأجهزة قد ساهمت في خفض نسبة الوفيات بين المواليد ، ولكن الوجه الآخر لذلك أن الولادة قد فقدت طابعها « كحدث إنساني » شعوري بالمعنى الدقيق ، كما يعلق على ذلك الطبيب الفرنسي فريدريك ليبور . فشرط المراقبة الآلية تجعل الولادة تجربة إنسانية هجينة من الصعوبة يمكن ، فكل شيء يتم وفق مخطط مقنن ومنظم ، ووفق روتين آلي ، وفي جو طبي معقم تحت ضوء ساطع . . . الخ .

لم يذهب ذلك النقد الذي وجهه الطبيب الفرنسي المذكور إلى طرق الوضع للعملية هباء ، بل ترددت أصداءه في ألمانيا الاتحادية ، وطالب الكثيرون بأن توضع الأم والطفل في بيئة الاهتمام خلال عملية الوضع لا أن ينظر إليها كعملية معملية

هذا بالتأكيد صحيح ، ولكن السؤال الذي يلح علينا هو عما إذا كان لدينا الحديث يستطيع أن يغطي حاجات الناس الذين يعيشون في دائرة الحضارة الحديثة ، في دائرة حضارة هذا الطب . فقد يكون الطب البدائي ما هو مفيد لنا . يقول شيفن هوفل : « رأيت بنفسى مدى ما أحرزه المليون من نجاح كبير في حالات مرضية مزمنة تصاحبها أعراض القنوط والاكتئاب . ويرى تفوق وسائل العلاج المتوارثة بشكل واضح في حالات الاضطرابات النفسية الشديدة ، التي لا تجدي معها الأدوية الغربية ووسائل العلاج الغربية . »

ليس صاحب هذا الرأي من دعاة « العودة إلى الطبيعة » ، وليس من المشيعين لمثل هذه المقولات الساذجة ، ولكن نظراته التي تتخطى حدود الحضارة التي نبع منها ترى أكثر من تلك التي لا تعرف غير حدود البيئة المحيطة ، وتدرك ما لا تدركه النظرة المنحصرة في سجن الذات ، إن هدف عالم الطب الأثولوجي أن يعرف غيره بمعالم الطب التقليدي الذي يمارس في البلدان النائية ، ويسمى بهذه الوسيلة إلى التوفيق بين فن التطبيب المتوارث والطب الحديث من أجل إيجاد السياسة الطبية التي تسلب هذه الحضارات والمجتمعات ، وهذه قضية تهتم بها منذ فترة منظمة الصحة العالمية التابعة لـ لجنة الأمم المتحدة ، فهي تسعى إلى عقد حوار بين الأطباء في بلدان العالم الثالث وبينهم في الغرب ، وإلى تنمية التفاهم في هذا المجال الحيوي .

ليس المهدف هو خلق نظام طبي غربي في مجتمعات الدول النامية ، وإنما إيجاد نظام طبي شعبي فعال . ثم إن الغرب يستطيع أن يتعلم الكثير من المعارف الطبية الممارسة في هذه المجتمعات . فالتفاوت بين الممارسات ظاهر للعيان ، وبوجه خاص في مجالات الحمل والوضع ، فهذا المجال تحكمه في الغرب الأجهزة التكنولوجية ومعارف العلوم الطبيعية . بينما يتم في دول العالم الثالث على أسس تقليدية متوارثة .

كيف تتم الولادة في الدول الصناعية الغربية ؟ في المستشفيات ، في جو اصطناعي ، وكأن الوالدة مريضة تجري لها عملية جراحية . أما بين تلك الشعوب التي نسميها بدائية ، فالولادة

المهدف منها أن تلفظ الأم ذلك المحتوى الغريب الذي تحمله في رحبها . ويكنفي أن تشير هنا الى «الألفاظ العلمية» التي تستخدم في صالة الولادة حتى ندرك ذلك .

قد لا تختلف لغة الأطباء كثيراً عن لغة الأجهزة الطبية الحديثة ، ولا مجال في هذه اللغة لحديث المواطف . وليس هذا بغريب ، فالـمستشفى أو «بيت الطب» يفتزوه الآن بترابيد الهندسون الذين يجهزونه بالمعدات والآلات ويقومون على صيانتها . يسيطر الكومبيوتر الآن على الحياة اليومية في المستشفى فهل يصبح الطبيب مجرد مساعد لرجل التكنولوجيا ؟ أيملك أفضل جهاز من يستطيع دفع ثمن هذا الجهاز ؟ أين تقف الشفاء على حدائة الجهاز ؟ يمتد الكثيرون في ذلك ويتهاقون على كل ما هو حديث ومعقد في هذا المجال ، وتبقة ذلك هي تحول المستشفيات الى «ورش اصلاح للأدميين» .

يعالج في ألمانيا الاتحادية في المستشفيات سنوياً نحو احد عشر مليون فرد . ويشكو المرضى من الازاماة في المستشفيات ، إذ يشعرون أنهم مجرد أرقام أو أسرة في حجرات . ويدرك الكثير من الأطباء الأضرار التي تلحق بالمرضى من جراء ذلك السبل المتدفق من الاجرامات المتعددة في سبيل تشخيص المرض ، ويعرفون جيداً شعور الضياع الذي يعاني منه المرضى في هذا الملتاخ الغريب الذي لا يدركون أسراراه ونظمه . ودون شك فتلك الشكوى المتكررة من «عدم احترام كرامة الانسان» في المستشفيات تتبع في المقام الأول من البنيات التنظيمية المترتبة على هذا التجيز التكنولوجي أكثر مما تتبع من سلوكيات الأطباء وهيئات التمريض .

ولكن يجب أن لا نسرف في الشكوى من تراجع «الشعور الانساني» ، فهناك الكثير من العوامل الأخرى التنظيمية والاقتصادية التي تتعارض مع احتياجات الانسان الأساسية . فالتقضية ليست رهن الأطباء والمرضات وحدهم ، وإنما تتطلب تعاون عالم النفس والفرف الاجتماعي والديني ورجال الادارة والمراقبة .

ويوجه عام يشكو المرضى من ظهوره بينهما : مثل الايقاف المبكر ، قلة الاهتمام والتعاطف ، لغة الأطباء الغريبة ، وكذلك

من الشعور بأنهم بلا ارادة تحت رحمة عالم من الأجهزة . وتحت هذه الظروف ليس من الغريب أن يفقد بعض المرضى كل رغبة في الحياة والمقاومة .

سئل عام ١٩٧٨ كلستن فيلمر ، رئيس غرفة الأطباء في ألمانيا الاتحادية ، عن العلاقة بين الطبيب والتكنولوجيا ، فأجاب دون تردد : «في الأوامر الماضية كنا نؤمن ايماناً كاملاً بالتكنولوجيا والعلم ، كنا واقمين تحت سحر التكنولوجيا ، وكنا نعتقد أن لا شيء في غير مستطاع إن توفرت لدينا الوسائل المادية . ولكن للطب حدوده . كان لا بد أن ندرك أن التكنولوجيا بالنسبة للطب وسيلة وليس هدفاً أو غاية ، إذ معنى ذلك ضياع جميع الأوجه الانسانية للطب» .

فلنع أن الطبيب في معظم الماكينة شيء بلا أمل ولا مستقبل . فلما كينات وظاقتها المحدودة فحسب ، وليست أكثر الأجهزة تعقداً وأعلاماً ثمناً أفضلها ، فهذا هو وهم البدائين . بل السكر صحيح ، فكلما تعقدت الأجهزة كثرت المتاعب والاعطال ، ثم إن انتاج الأجهزة يتتابع بسرعة . وليس من الغريب أن ينكشف سريعاً الايمان بالأجهزة بأنه خرافة وحماقة ، بل إن الأجهزة اللامعة تحجب عنا الرؤية وتقلل من قدرتنا على التعرف على المشاكل الحقيقية .

ما زالت على سبيل المثال الظروف التي ينشأ تحتها المرض أو التي تسبب المرض مباشرة ، ما زالت مجهولة أو غير مدروسة دراسة وافية ، وينطبق نفس الشيء على جواب الطب الاجتماعية والوبائية . وهذه أبول قد تدفع بمجلة الطب في الطريق الصحيح . لم تفقد كلمة ديمقريط حتى الآن مصحتها : «يصلي الناس للآلهة من أجل الصحة ، ولكنهم لا يدركون أنهم يملكون ذواتهم القدرة على الصحة والمرض» .

أعاد علم الطب الاجتماعي الى الأذهان أن وظيفة الطب المستقلة ليست التغلب التكنولوجي على مصاعب تشخيص الأمراض النادرة وعلاجاها ، وإنما البحث في أسباب الاضطرابات العصبية وأمراض البرد واليرقان والأمراض النفسية الجسمية ، وأسباب حوادث الطريق ، وتصلب الشرايين ، والسمنة المفرطة ،

ومرض البول السكري . ولكن العاملين في الطب الاجتماعي وفي أبحاث الأوبئة لا يشكلون حتى الآن غير ظاهرة هامشية في مجال الطب العريض .

ويعتبر المستشفى من المجالات الهامة لأبحاث عالم الاجتماع ، فالأقامة في المستشفيات لا تحل مشاكل المريض فحسب ، وإنما تخلق له جديداً من المتاعب . فالمرضى يضع في المستشفى كما ذكرنا من قبل نظام صارم ، ويضع كلية لأرادة غيره في لرضاء حاجاته ، ويواجه أجهزة علوية لا يفهمها . ويواجه عام فهو مغلوب على أمره . لمن المحتم أن يظل نظام المستشفى على هذا النمط ؟ لا شك أن إعادة تشكيل المستشفى من الداخل للتغلب على هذه السليبات من متطلبات المستقبل .

وليس لنا أن نهمل في هذا الأطار قضايا العلاج النفسي ، فما زال هذا الباب بعيداً عن يؤرة الاهتمام . ولذلك أسباب عديدة ، من بينها في ألمانيا حجرة جيل كفل من الأطباء النفسانيين بعد استيلاء النازية على الحكم عام ١٩٣٣ . وقد احتاج الأمر الى سنوات طويلة لتبويض هذا النقص . وللوصول الى المستوى العالمي في هذا الباب . وبالرغم من ذلك فما زالت الثغرة قائمة . هناك مؤشرات عديدة تشير الى الأهمية المتوقعة في المستقبل للعلاج النفسي ، فالاهتمام بهذا الفرع في اطراد مستمر في الجامعات ، إلا أن الكثير من

الشبهات والظلال تحيط بميدان العلاج النفسي . فهل البدن أحق علينا من النفس وإسقامها ؟

يتخوف الناس من المصابين بالأمراض النفسية والعصائية ، رغم أنهم يعيشون بيننا ويمارسون ما نمارس ، وكثيراً ما يكون مصيرهم الوحدة والعزلة . ومع ذلك فلا تنكر التأثير الذي طرأ أخيراً على نظرة الناس الى المصابين بالاضطرابات النفسية .

من المطالب التي نتوقعها من الطب هو أن يرضي حاجات المجتمع بقدر ما يرضي أيضاً حاجات المصابين والمرضى . فلم تعد مجالات إعادة التأهيل والوقاية غريبة على الطب ، وإن ظل المحور الذي يدور حوله بنين الطب الضخم هو التطبيق والشفاء . ومن ثم تدخل الكثير من المجالات في ميدان الطب وفي مقدمتها : الأخلاق والتربية والاقتصاد والمداولة الاجتماعية . نعم قد تغلب الطب على الأمراض المعدية الخطيرة ولكنه يواجه الآن تبعات التغيير الضخم في ظروف البيئة وفي أساليب الحياة في المجتمعات الصناعية .

ومن جديد يقف الطب في مفترق الطرق ويواجه أسئلة خطيرة حساسة . بل هو مطالب بمطلب صعب للغاية ، وهو ألا يضع لاغراض العلوم الطبيعية والتكنولوجية والادارية التنظيمية ، وأن يتحول الى مهمته الأصلية وهي العلاج عن طريق الرعاية والمشاركة والتعامل مع المريض .

IBN ZAYDŪN

ZWIESPRACHE MIT DER NACHT

*Oh Nacht, sei lang! Ich fühle deine Kürze
nie mehr als dann, wenn ich bei ihr verweile.
Wenn diese Nacht der Mond bei mir die Nacht verbrächte,
müsst ich, oh Nacht, die Nacht nicht bloss mit deinem Mond verbringen.
Oh Nacht! Erzähl ihr, dass ich alle Erinnerungen genieße, die du von ihr zu mir trägst.
Um Gottes Willen, sag, war sie mir treu?
Da kam die Antwort: »Nein. Sie übt Verrat.«*

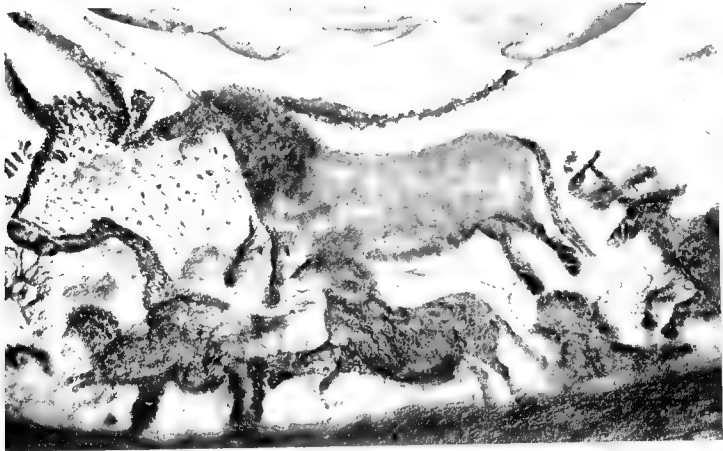


مقدمة المجاميع ، من رسم الأديب الروماني لودفيج تيك .

IBN ZAYDŪN

ACH, WENN DAS SCHICKSAL GEHORCHTE!

Wie konnte das Schicksal mich einsam lassen, warst du doch meine Gefährtin?
 Weshalb ist für mich der Tag so dunkel, wo du meine Sonne bist?
 Sā' ich nicht Sehnsucht in deine Neigung
 und ernte nur Tod als Frucht meiner Saat?
 Ja, meine Treue hast du mit Verrat entgolten,
 und grundlos mein Gefühl für nichts verkauft.
 Wollte das Schicksal meiner Weisung folgen,
 mein Leben gäb' ich, dich von seinen Übeln zu erretten.



من أقدم تصاوير الخيل .

نقوش جاثلية تصور الخيل . في كهوف لاسكو ، فرنسا ، نحو ١٠ آلاف سنة قبل الميلاد .

هلموت فون مولتكه العربي وفرسه

الشن في غضب وهو يصيح بأن العربي يسلبه ماله ويمطيه
مقابلاً أقل قيمة .

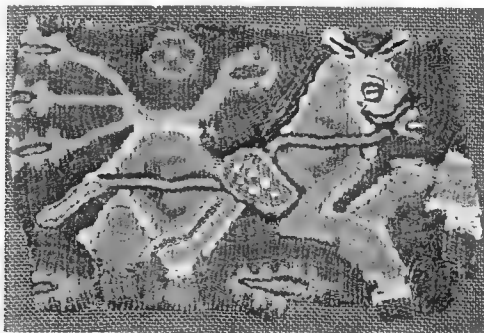
نظر إليه الشيخ العربي في هدوء دون أن ينبس . ثم جمع
الأكياس ووضعها في عبائه البيضاء التي يلتحفها ، ونزل
الادراج إلى الحوش لكي يودع فرسه . واقترب منه وغمغم
إليه بكلمات في أذنه ومسح يده على عينيه وجبهته ، ثم
فحص حوافره ، وسار بخطوات وثيدة حوله . ثم فجأة قبل أن
يدرك اتباع الباشا ما حدث ، قفز على ظهر الفرس العاري
واندفع به إلى الخارج .

كادت الصفة أن تتم ، فقد أعجب الباشا بالفرس ، واستغرق
التفاوض مع القبيلة العربية زمناً ، وأخيراً اتفق الطرفان على
الشن وحددها بمبلغ ستين كيساً ، أي بنحو ستمائة مارك .

وفي الموعد المتفق عليه أقبل شيخ القبيلة إلى قصر باشا
«مادين» ومعه الفرس . ولكن الباشا التركي راوده الأمل
في تخفيض الشن ، فما قد حضر إليه العربي ، وما عليه غير
أن ينتقص من قيمة الفرس وأن يثور ويزيد إن اقتضى الأمر .
ولكن الشيخ العربي رفض في أنفة شديدة أن يتنازل عن
فلس واحد . فما كان من الباشا التركي إلا أن ألقي إليه



من المعبر الأسنوي ، القرن الثامن قبل الميلاد ، الملك تيجت الثالث (٧٢٧ - ٧٤٥ قبل الميلاد) في عربة الملكية نقوش على الجدران .



توب مطرز يرسم للخيال . مصر نحو القرن السابع أو الثامن بعد الميلاد . كلان . متحف ايج . برن ، سويسرا .

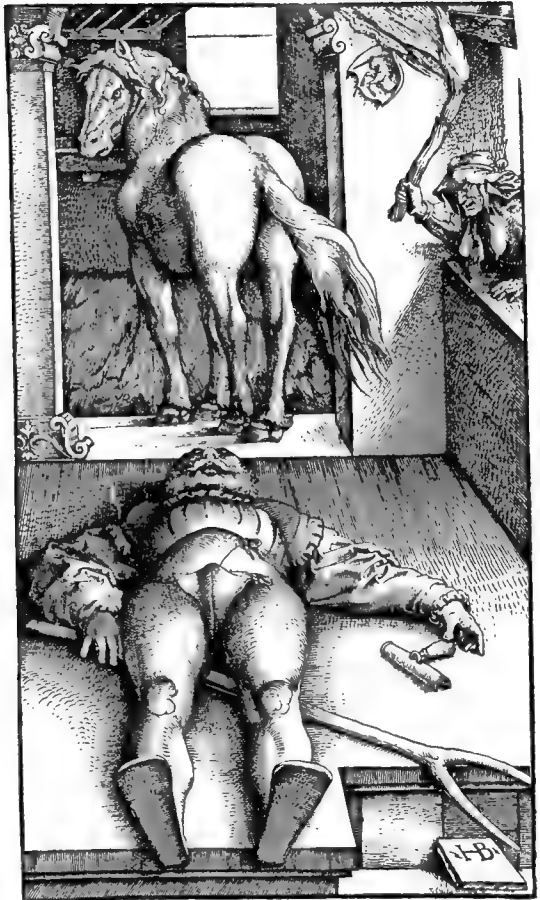


رأس حمان . الصين ، الدولة السادسة (٢٢٢ - ٥٨٩ بعد الميلاد) .



رأس حصان ، أثينا ، اليونان ، القرن الخامس قبل الميلاد .

فارس باميرج . مهر عام ١٣٣٧ .



مهر بلدونج جرين (١٤٨٩ - ١٦٥٥)
 . عامل الاصطبل في عالم النوم .





عادل اعطى تركي ومعه حصان عربي . القرن التاسع عشر .

أن يجتاز هذا المائق حتى اندفع مجنحاً كأنه يسبح بين الرمال والهواء . وما من عائق يوقفه . ولكن ما كان يود العربي أن يختفي عن أعين مطارديه وإنما أن يظل قريباً منهم بعيداً عنهم ، أن يرلودهم ويقدمهم في نفس الآن . فما هم كل لحظة يأملون اللحاق به ولكن هيهات . والأغرب أن العربي لا يجهد نفسه أو فرسه ، وإنما يتمهل حيناً ويسرع حيناً آخر .

استمرت المطاردة على نفس النوال حتى هبط قرص الشمس من علاه وانسحب ماحتياً في دورته حتى كاد يغيب عن الأنظار ، وغامت الدنيا في أجواء الفسق . في هذه اللحظة اندفع العربي بفرسه وكأنه يودع مطارديه مخلخلاً وراءه زوية من التراب .

لا يدوم الشفق في الشرق الا فترة وجيزة ، وسرعان ما اختفى العربي وفرسه وهبط الغلام .

من المتباد في الشرق أن تظل الجياد مطقمة ليل نهار ، أي تحمل سرجاً من اللباد ليل نهار ، ومن المتباد أن توجد في اصطبلات كبار القوم بعض الجياد المجهزة للمدة للاعتناء في جميع الأوقات . هذا على خلاف عرب البادية الذين لا يجيزون جيادهم بمقود أو زمام ، حيث يكتفون بضمير الجياد لا يقافها ، ويتوجيهها الى اليمين وإلى اليسار بعزيرات خفيفة براحة الكف على الأعناق .

ومن ثم فلم يطل الأمر ، إذ انطلق اغوت الباشا فوق الجياد يطاردون العربي الهارب . كادوا أول الأمر أن يلحقوا به ، ففرس العربي ليس ذا درية على العدو فوق الأرض المظن بالحجر . وكان على الفرس أولاً أن يقطع الطريق المؤدي من قصر الباشا الى نهاية المكان . ولكن ما كاد فرس العربي



عامل اصطبل مع حصان . منمنمة فارسية . نهاية القرن السادس عشر .

العربي الذي غدر بهم ، وإن اعترفوا فيما بينهم بأن فرسه بلا ثمن وأن الباشا قد أخطأ في التكوين من شأنه .

في صباح اليوم التالي بعد أن أذن المؤذن لصلاة الفجر سمع الباشا صوتاً يناديه ، ثم سمع صهيل جواد في الحوش ، فأطل من طاقته فرأى العربي والفرس . ثم سمع الشيخ العربي يناديه ويسأله : « يا سيد أتريد نقودك أم تريد الفرس ؟ »

كانت قد مضت ساعات طوال على الأغول الأتراك في تلك المطاردة الغريبة . وها هم بعد نهار كامل يقفون في منتصف الصحراء دون زاد أو ماء . فما كان لهم غير أن يكرروا عائدتين ، ليعلموا سيدهم التركي بخيبتهم ، وبأنه فقد الفرس والمال . عاد الأغول في الليلة الثالثة ، وقد كاد الجوع والمطش أن يقضيا عليهم وعلى جيادهم . ولعلهم كانوا سعداء بأنهم لم يقضوا نحبهم . ولكنهم عادوا أيضاً بغضبهم وحنقهم على ذلك



من عمل الفنان دييجو ده فالسكس (١٥٩٩ - ١٦٦٠) ، الأمير نايفازر كارلوس . نحو عام ١٦٣٤ . مدريد .

فرنس كروجر (١٧٩٧ - ١٨٥٧) . نرمة الأمير فيلهلم (التنوير الألماني فيما بعد) مع الرسام عام ١٨٣٦ متاسف الدولة . الجاليري القومي . برلين . ◀



هانز روبرت رومر

ريشارد هارتمان بمناسبة مرور مائة عام على ميلاده

الفصل الشتائي من عان ١٨٩٩ بجامعة تونينج وكسرس نفسه لدراسة اللاهوت فيها مدة خمسة أعوام حتى اجتاز امتحان الخدمة اللاهوتية الأول في خريف عام ١٩٠٤. ولكن كيف حدث أن ريشارد هارتمان لم ينجح النج الذي رُسم له منذ البداية، وإنما اتجه نهائياً إلى أحد تلك الحقول العلمية التي كانت تعتبر في الأساطير العامة على حد تعبيره «هوايات خاصة»، أو، كما يقال، «موضوعات ترف علمي»؟

لقد أجاب بنفسه على هذا السؤال في كتاباته، وعلى الأثر في المواضيع التي على المرء أن يبحث فيها عن الجواب، كسيرة حياته المدرجة في أطروحة الدكتوراة أو في خطاب افتتاح مدرجه التعليمي عند تعيينه في الأكاديمية البرلينية للعلوم. ولكن هذا الجواب يتضح بصورة أجل خلف حقائق كثيرة في حياته: إذ نعلم أنه تعلم العبرية بسهولة مذهشة في المدرسة، وأنه درس في الجامعة اللغات السامية إلى جانب اللاهوت، كما أنه، بعد اجتياز امتحان اللاهوت في الفصل الشتائي ١٩٠٤/١٩٠٥، توجه إلى برلين لمتابعة الدراسة، حيث درس على يد فريدريش ديلتش وهوغو فشكل وأولف إيرمان، وكلاهما من مشاهير التخصصين في الشرق القديم ومصر، كما درس على مارتن هارتمان الذي كان يمثل الدراسات العربية والتركية الحديثة في معهد اللغات الشرقية. وكما يبدو فقد كان القرار بالتخلي عن المدرج اللاهوتي قد سبق التصميم على الدراسة في برلين. ومن المحتمل أن الدراسات الشرقية كانت قد اجتذبت منذ البداية أكثر مما ضلّت «الدراسة المتخصصة الرسمية»، كما ألح بنفسه بذلك لدى معلمه وأستاذه في تونينج كريستيان فريدريش زايبول الذي اتخذته مثلاً أعلى. وتبدو العلاقة بينهما واضحة من رحلة مشتركة قاما بها إلى شمال أفريقيا بمناسبة انعقاد مؤتمر المستشرقين العالمي الرابع عشر في الجزائر

يصادف هذا العام مرور مئة سنة على ميلاد ريشارد هارتمان Richard Hartmann. ويعلم من حالفه الحظ وتلقى عنه العلم ما كان عليه من معرفة واسعة على الرغم من مظهره المتواضع. كان بفضل إلمامه بعلوم اللغة من معالجته الصادقة للمسائل التاريخية أستاذاً مثالياً يشجع تلاميذه بروح طيبة ويقدمهم بعناية دائمة إلى مصادر العلم ومراجعه. ويصعب إيراد أهم أعماله من بين نتاجه الحصب، فقد ظهرت هذه الأعمال في الأعم في صورة أبحاث قصيرة. وقد استحق مدخله إلى دراسة «الاسلام» منذ أمد طويل طبعه جديدة، فهو كمقدمة لدراسة الدين الاسلامي من أرسن المؤلفات وأبعدها عن التحيز. وقد شملت اهتمامات هارتمان حقولاً كثيرة ابتداء من المعري، الذي كرس لكتابه «الفصول والنايات» مقالة بعيدة الأغوار، وانتهاء بمشاكل تركيا الحديثة. ويعتبر وصف رحلته «في الأناضول الجديدة» الذي ظهر عام ١٩٢٧ من أوائل الدراسات الوصفية لتركيا في عصر كمال أتاتورك. وهو عمل يستحق الدراسة حتى اليوم، حيث وصف هارتمان المشاكل الرئيسية، وكذلك التطور الاجتماعي القبل في تركيا الجديدة بنفهم وحسن نابض.

وإليه لذكرى هذا المستشرق العظيم فأتنا نورد فيما يلي كلمة التي التي نشرها الأستاذ هانز روبرت رومر في مجلة جمعية الأستشرق الألمانية بمد وفاته عام ١٩٦٥ والتي ترسم صورة تذكارية جميلة لشخصية ريشارد هارتمان العلمية.

ولد ريشارد هارتمان في ٨ يونيو (حزيران) عام ١٨٨١ في نويزكيرشن في وادي تاويرتال لأب من رجال الدين هو القس موريتس هارتمان، وتلقى دراسته الثانوية في ميرغتهيلم ومولبرون وبلاويرسكا بنية التخصص في دراسة اللاهوت مستقبلاً. وبالفعل فقد التحق من



R. Harman

ريشارد هارتمان .

عددًا ، وحدة لا تُنْصَفُ ، اذا ما نظرنا اليها من وجهة نظر علم الاسلاميات ، الذي كان يعنيه بوجه خاص . وقد حدد بنفسه محور دراساته ومنطلقها ألا وهو التاريخ الاسلامي لأواخر العصر الوسيط متواليا في ذلك خطوفاً تمود الى ما قبل هذه الفترة ويمتد الى ما بعدها . وبالفعل فان اطروحة للدكتوراة ، وموضوعها يتعلق بالطوبوغرافية التاريخية لفلسطين وسوريا اعتماداً على مؤلف عربي من القرن الخامس عشر ، تكشف عن هذا الموى الخاص ، الذي يظهر متكرراً بعد ذلك في كتاباته . ويتعلق الأمر هنا بتاريخ الممالك الذي كرس له جزءاً كبيراً من دراساته وأبحاثه . وقد رأى بنفسه كيف أثمرت أبحاثه وأدت مفعولها الخلاقي ، حيث نذكر مثلاً واحداً فقط من نتاج الأعمال الأخيرة : فتحقيقه ونشره لمقتطفات من تاريخ ابن طولون (١٩٢٦) ، وهو يعتبر درة من درر الأساليب التاريخية النقدية ، وفقاً بالباحث المصري محمد مصطفى الى نشر هذا العمل بكامله .

في ذلك الحين كان فيض الاسلام وفن الشعر العربي ومراحل التطور حتى فترة اضمحلال الحضارة العباسية ، أي القرون الأربعة الأولى للهجرة ، تعتبر المورد الرئيسي الذي كان الباحثون في الاسلاميات يفضلون الاغتراف منه ، بينما نظر الى الفترة التالية باعتبارها عهد الركود والانحطاط التدريجي للحضارة الاسلامية . ولكن هارتمان ساهم كثيراً ، بفضل إنجازاته الملمعة ، في تصحيح هذه الفكرة الضيقة المحدودة ، التي لم تتغير تملأاً حتى اليوم ؛ إذ أدرك أن

في ربيع عام ١٩٠٥ ، وبوجه خاص ، من كلمة النعي الشخصية التي رثي بها زايبولد عند وفاته .

حصل هارتمان على ثقافته الأساسية في حقل الاستشراق لدى زايبولد ، الذي أشرف على تخرجه بدرجة الدكتوراة في ١٧ يناير عام ١٩٠٧ . ومهما كانت علاقة التلميذ بأستاذه من وثوق ، إلا أن مرد الايجابيات القوية لانتاجه العلمي الحياتي قلما تعود الى الاستاذ وحده . فقد كان زايبولد وظل ، رغم اتساع اهتماماته ، عالماً لنوياً الى أبعد الحدود . ولم يتضح هذا من مؤلفاته فحسب ، وإنما كذلك ، وبوجه خاص ، من الحدة الغريبة التي كانت لا تتورع عن بلوغ درجات الشذوذ في تقاريطه اللغوية ، مؤرخاً حضارياً بمفهوم ياكوب بوركهاردت حتى أنه اعتبر بحق « المؤرخ المفقود للعالم الاسلامي » . ومن وجهة النظر هذه ، فقد تلقى ايجابيات وتأثيرات أقوى من أساتذته البرلينيين ، وربما كذلك من المؤرخ الكندي المرموق كلود هول ، أحد أساتذته في توبنجن . إلا أن الدافع الأكبر نجم عن جاذبية علم جديد جداً آنذاك ، علم كان يشق طريقه في الحياة الأكاديمية ، ونمى بذلك « علم الاسلاميات » . وما يسمح لنا بهذا الاستنتاج هو بعض تصريحاته ، ككلمة النعي المؤثرة التي نشرها بمناسبة وفاة إيزناتر غولدتسيير « مبدع علم الاسلاميات كحقل علمي يتمتع بمسائله وطرق بحثه الخاصة » .

واذا راجعنا اعمال ريشارد هارتمان الكاملة ، نستطيع التمييز بين ثلاثة حقول بحث مختلفة ، رغم ما بينها من تداخل : فالأول يشتمل على أبحاثه العلمية ، وهي منشوراته العلمية المتوفرة بين أيدينا ، والثاني يتعلق بفاعلية الاستاذ الجامعي ونفوذه الأكاديمي ، والثالث يتناول عمله ونشاطه في خدمة الباحثين الآخرين والجيل الصاعد من العلماء ، أي تنظيم البحث والعمل العلمي . وقد كرم ألبرت ديترش خدمات المتوفي وعددها بكثير من التقدير في كلمة نعي ممتازة (١) ، تحتوي على عدد كبير من الملاحظات والتفاصيل لا نود تكرارها هنا . إذ نود أن نتعصر في هذه المقالة على بعض الانطباعات والأفكار ذات الطابع الشخصي ، بحيث تكتمل بها الصورة .

تشكل كتابات هارتمان المنشورة ، التي تزيد عن الخمسة

مع شواهد الماضي ، ليفحص مدى صحة المعارف التي اكتسبها وكونها لنفسه قبل ذلك . بعد الرحلة المذكورة سابقاً الى شمال افريقيا عام ١٩٠٥ ، حيث تعرف على الجزائر وتونس ، سافر في الربيع التالي الى فلسطين لمدة خمسة أشهر عبر مصر ، كما قام في العشرينات برحلتين الى تركيا . والواقع أنه هو أيضاً كان يبحث في الماضي التاريخي عن تفسيرات لما يجري في العصر الحاضر من أحداث . إلا أن ما يشير الانتباه هو مدى الأهمية التي كان يوليها الى جانب ذلك للعملية في الاتجاه المعاكس ، عندما يشير الى أنه في السعي الى تفهم القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان يستعين « بالحدث الجاري أمام أعيننا . إذ ان من الأمور البديية أننا . . . معشر المستشرقين ستكشف ادراك الماضي التاريخي ، بقدر الامكان ، مما يجري اليوم في نفس الأماكن ولدى نفس البشر » .

الا أن هذا القول لم يكن أمراً بديهياً منذ ربع قرن ، كما أن قائله كان يراهياً هذا سابقاً في الزمن لبعض معاصريه من المستشرقين . ومن الطبعي أن كثيراً من المستشرقين كانوا آنذاك وقبل تلك الفترة أيضاً يعرفون المعمورة الاسلامية معرفة شخصية بالمساعدة ، الا أنه كان يدافع عن الرأي القائل بأن زيارة العالم الاسلامي لا ضرورة لها ، لأنه يمكن ، إن لم يكن من الأفضل ، أن تعالج المسائل العلمية الخاصة بالشرق وتحل وراء المكتب المنزلي . لم تتم صلاحية المبدأ القائل بوجوب الإقامة الطويلة في الشرق كشرط طبيعي لمدرج حياة المستشرق الا في الفترة الأخيرة . وانه لمن فضائل هارتمان وخدماته تشجيع هذا المبدأ قولاً وفعلاً .

ومن الحيلوظ التي اتبعها الباحث والمتمدة الى ما قبل الفترة التي انصب عليها اهتمامه نذكر في المقدمة دراساته حول مبادئ الاسلام التي عرضها في كتابه « دين الاسلام (١٩٤٤) » وهو عرض رائع ما زال يتمتع لدى القراء حتى اليوم بحب خاص ، سواء منهم طلبة علم الأديان أو طلبة الدراسات . وقد سبق هذا الكتاب فترة طويلة دراسات كثرة وما زالت موضع تقدير حول التصوف الاسلامي ، وهي الدراسات التي بدأها عام ١٩١٤ ببحث اجازة التدريس الجامعي في كيل حول متصوف هام من القرن الحادي عشر . وبهذه الدراسات

تلك القرون التالية قد رسخت « أشكالاً جديدة ثابتة ، وإن ازدادت شيئاً فشيئاً بعد . . . للحركات الفكرية » . . . رأى في تنغلل العناصر الشعبية التركية في العالم الاسلامي في عملية بطيئة في البداية ، ما لبثت ان اشتدت حتى أصبحت عاصفة جارية كلفيضاتك أخيراً ، رأى في ذلك عملية شبيهة بموجات الهجرة الجرمانية . وكما أدت تحركات القبائل الجرمانية وتدفعها على العالم الموحد الحضارة الغربية القديمة الى تكوين القوميات الأوروبية ، فقد نشأت ، بسبب تنغلل الأتراك في أرض الخلافة بحضارتها الاسلامية الموحدة أيضاً ، شعوب الشرق الأدنى المختلفة بالمفهوم الحديث . ومضى خطوة أخرى أبعد من ذلك : فقد رأى في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ذلك العصر الذي تتحقق فيه الفصل الأعظم في تاريخ الشرق الاسلامي ، ليس من الناحية السياسية فحسب ، بل وكذلك من حيث التطور الفكري أيضاً . وقد تمثلت أهم الأحداث - وتعتبر بالنسبة الى الملاحظ الأوروبي المرحلة التمثيلية لكل هذه العملية التاريخية - في نشوء ونمو الدولة العثمانية ، التي بلغت احدى ذراها بنفوز قلب البقاع العربية وسوريا ومصر في بداية القرن السادس عشر . وكل ما تلا ذلك ، وحتى المشاكل الحاضرة للعالم الاسلامي تعود بذورها الى هذين القرنين .

ولا يستطيع المرء أن ينكر على هارتمان الحق في إبلاء مثل هذا الرأي المتطرف ، وقد عاج في عدد من أبحاثه الرئيسية مشاكل الدولة العثمانية ، وكذلك وبوجه خاص العلاقات والأحداث التي سبقت انبثاها أو سببها أو صاحبته ، بالإضافة الى دراسته عن تركيا في العصر الحديث . وهنا يمكننا البحث عن منطلقات اشتغاله « بتاريخ حاضر العالم العربي » ، على حد تعبيره . في عدد من الدراسات عن القومية العربية بحث في أسباب هذه الظاهرة ونشوتها وخصائصها ، بحيث ساهم بذلك في فهم الوضع السيلسي لمصر ، وكذلك للتطورات التالية ، الجارية في عصرنا . وقد تمكن حسنه الثاقب من كشف النقاب عن حقائق مثيرة ، أصبح بعضها اليوم جزءاً من التراث العلمي العام . وفي هذا المجال لا ننسى ذكر رحلاته الى الشرق . ففي هذه الأسفار كان يبحث ويجد الفرصة ، في اللقاء الحي مع طبيعة وسكان البقاع التي يدرسها وكذلك

اشترك في النقاش الدائر حول موضوع للبحث توصل فيه حقل الاسلاميات العلمي في النصف الأول من القرن العشرين الى سلسلة من أمجل نتائج^(٣) .

لقد كانت أبحاث هارتمان التي ذكرناها سابقاً وثيقة الاتصال بدروسه الأكاديمية . اذ كانت مبادئ الاسلام ، كشرط لا بد منه ، تعالج استناداً الى نصوص مختارة بعناية في الحلقات الدراسية التي تربط كاتب هذه السطور بها ذكريات حية لفصلين دراسيين في برلين يعودان الى ثلاثين سنة خلت . وإذا كان النص مقتطفاً من شرح تشريعي كان يبدو جافاً لأول وهلة أو من تأليف كاتب عربي عصري ، فقد كان هارتمان يعرف كيف يضعه في مكانه المناسب من العرض التاريخي الحضاري بطريقة تضمن اهتمام الطلبة وتشوقهم للاطلاع . وكل يشرح بعض المواضع في النص بعرض تجاري الخاصة وسرد ملاحظاته الشخصية في الشرق ، حيث كانت تبرز روحه المرحية . وفي إحدى محاضراته كان يعالج التيارات السياسية والثقافية في تركيا الجديدة . وهنا ظهرت الى جانب عرضه الرزين المتزن سلامة في الحكم الى جانب موقف ناقد ، لا بل متشكك ، إزاء التسرع في تفسير الأحداث الأخيرة والحكم عليها ، كما كان للمرء يصادف الكثير من ذلك في الغالب . ويدرك المرء من جميع أقواله وآرائه اهتماماً شخصياً عميقاً بموضوع البحث ، الى جانب حبه للشرق . وكل هذا العالم الذي كان يبدو عادة خجولاً قليل الكلام ، لا بل متلوياً على نفسه ، يفتح مطلقاً منفرج الأسارير أثناء التدريس في ندواته العلمية . وكان يمتاز في سلوكه بوجه خاص باللملمة الكامل بالمادة الى جانب روح الصبر والفهم والمراعاة إزاء طلبته ومساعدته . وكانت هذه الصفات تخلف في الدرس جواً لا يصادفه المرء في كل مكان ، دون أن يفقد الاستاذ بذلك شيئاً من تأثيره ؛ فكان يتوفر له دوماً عدد كاف من المستمعين الشاكرين .

وجزاء على انجازاته في حقله البحث والتعليم ، وتشهد على ذلك استعداءاته للتدريس في جامعات لايبزغ (١٩١٨) وكونيغزبرغ (١٩٢٢) ، وهاميلدبرج (١٩٢٦) وغوتنجن (١٩٣٠) يعتبر تكليفه بالتدريس في جامعة برلين عام ١٩٣٦

التقدير الذي استحقه وذرورة مدرجه الأكاديمي . وفي ذلك المركز الفريد للاستشراق الألماني كان من الممكن لهذا العالم أن يكون سعيد الحظ تحت ظروف طبيعية في أن يتمكن ، وقد بلغ الخامسة والخمسين ، من جمع الحصول الكامل لأعماله العلمية خلال حياته بكل هدوء وطمأنينة . وتكفي نظرة الى فهرس مؤلفاته وأعماله لترينا خصوصية إنتاجه خلال الأعوام البرلينية . الا أن الأمر غير المؤلف تلمساً ، هو ما كان يتظره من عن وتجارب وألوهام وصائب وآلام شخصية ، وكذلك من نجاحات ، ظل يحرقها حتى بلغ سنأ متقدمة .

وهنا نواجه الحقل الثالث من حقول العمل التي تشتمل عليها حياة ريشارد هارتمان ، ونعني بذلك التنظيم العلمي والرياسة الحاصلة للمجردة لانجازات غيره ، والاهتمام بمستقبل العلم .

ونجد ذلك قبل أي شيء آخر عند الاطلاق من اشتراكه في عمل النشر الذي بدأ عام ١٩١٠ . فقد اشترك آنذاك في قلم تحرير دائرة المعارف الاسلامية في لايدن بولندية ، التي ظهر اسمه بين الناشرين على غلاف المجلد الأول الذي صدر منها عام ١٩١٣ . وهنا أتيحت له فرصة التعرف على طبيعة ومشاكل التعاون مع عدد كبير من العلماء من جميع أطراف العالم . ولا شك أن المهام التي كان عليه أن ينجزها لم يصب عليه حلها ، والا لما تمكن بسهولة من الاشتراك في رئاسة تحرير صحيفة الاستشراق الأدبية

Orientalische Literaturzeitung ، التي تأسس إصدارها عام ١٩٢٥ ابتداء من المجلد ٣٨ تحت إشرافه الخاص ، والتي ظل يصدرها حتى المجلد ٥٦ عام ١٩٦١ . وإذا لم يكن قد اقتصر في عمله لدى دائرة المعارف الاسلامية على مراجعة أعمال الآخرين ، بل وساهم بنفسه في كثير من المواد :- فان نصيبه الخاص من مقالات المجلدات التسعة والعشرين من صحيفة الاستشراق الأدبية التي كان مسؤولاً عنها ليعتبر أكبر بكثير .

وفي عدد كبير من المقالات الخاصة بتقريب الكتب والشروح التحليلية يتضح ميل كبير الى هذا النوع من العمل العلمي . ولا يجب المرء في تقريره الناقد للكتب 'بعقم معرفته

الاختصاصية فحسب ، بل وكذلك بأسلوبه الأنيق وكذلك ويوجه خاص بانصافه الذي لا يعرف التفرض . وقد وضع نصب عينيه عندما تولى اصدار صحيفة الاستشراف الأدبية بعد وفاة سلفه فالتز فريتينسكي نفس الهدف الذي اختطه هذا ، وهو تحويل هذه الصحيفة الى مجال يشترك فيه جميع مستشرقي المانيا والخارج دون تمييز في الآراء والدراس والاحكام كعاملين دائمين . ومن الطبيعي أن أحداث الساعة وظروف الحرب وما بعدها عرضت هذا المشروع الى أخطار جسيمة . ففي عام ١٩٤٤ اضطرت الصحيفة المذكورة الى التوقف عن الصدور . ولا يستطيع غير المعني بالأمر أن يدرك مدى الجهود التي بذلت لاعادة احياء هذه الصحيفة بعد ذلك بتسمة أعوام .

لقد قام الاستشراف البرليني في كثير من الجوانب بعد الحرب بنفس الصورة التي قدمتها الجامعة الألمانية : الدمار والحرب في كل مكان ، وبشر متفرقون في كل اتجاه ، يرزحون تحت أسمال البؤس وضغط الحاجة . وتلفت الكثير من القتب والمواد العلمية أو ضاعت أو نقلت الى أماكن مجبولة . وتهدمت مبان كثيرة كثت في الماضي مراكز للبحث العلمي ، بالإضافة الى ما حدث في برلين حيث انقسمت المدينة الى شرق وغرب . وتحت هذه الظروف ، كانت الجراحة في الاقدام على بداية جديدة تعني الكثير بالنسبة لرجل قارب السبعين ، ولم يكن يتمتع طول حياته ببنية جسدية قوية ، وقد خارت قواه بعد انهيار عاصمة الرايخ ، ولكن بوجه خاص بسبب الغموض الذي خيم حول مصير ولديه اللذين شاة القدر ألا يعودا من الحرب .

إلا أن هارتمان لم يستسلم : فقد عاود العمل في الجامعة وفي الأكاديمية ، التي كان ينتمي اليها منذ ٢٩ أبريل ١٩٣٩ كعضو نظامي ، بطاقة وصود ، وأصبح ، عند تكون «معهد الأبحاث الشرقية» في أبريل عام ١٩٤٧ ، مديراً لهذا المعهد . وقد حددت حقول مهمات هذا المعهد على الشكل التالي : «الجمع بين الأبحاث التي تقوم بها سابقاً كل من الأكاديمية وجامعة برلين وكذلك المتاحف ومعهد اللغات الشرقية في حقول الدراسات الشرقية ، بالإضافة الى خوض

مشروعات علمية جديدة في حقول علم اللغات والآثار والتاريخ الحضاري للمشرق . وهناك أقسام لأبحاث الكتابة المسماة وللدراسات العربية والتركية والآيرانية والمهندية والآسيوية الشرقية ، بالإضافة الى الدراسات المصرية القديمة والدراسات الأفريقية^١ . وظل هارتمان ، الذي احتفظ بكرسيه الجامعي في جامعة مومبولدت حتى عام ١٩٥١ ، وهو عام تقاعده ، ظل لمدة عشر سنوات تقريباً مديراً للمعهد ، وعندما تولى هيرمان غرايو هذه المهمة عام ١٩٥٦ ، أصبح رئيساً للجنة الإدارية حتى عام ١٩٦٠ . وتحت إشرافه وتأثيره الحاسم ترعرع ونشأ في برلين مركز جديد لرعاية الاستشراف ما لبث أن امتاز في فترة قصيرة بسبب إنجازاته ولا حاجة بنا الى خوض التفاصيل في المشروعات التي نشأت في إطار هذا المركز في هذا المجال لسبب واحد فقط ، وهو توفر التقارير الرسمية حول ذلك . . . ويجدر بنا أن نذكر على أي حال أن سلسلة المنشورات التي أصدرها المعهد تحت إشراف هارتمان بلغت أكثر من خمسين مجلداً .

لقد مهد الأسوف عليه السبل أمام تأسيس وبناء المعهد للأبحاث الشرقية في عمل دووب ، كما أعاد الحياة الى مشروعات مهمة ، وشجع كثيراً من الزملاء في الاختصاص لاقتحام موضوعات جديدة وضمن لكثير من المستشرقين أماكن للعمل . وظل لمدة أعوام يدوم على ارتياح المعهد يوماً بعد يوم ، رغم مشقة الطريق اليه في كثير من الأحيان . وعندما بدأ فريتر هينته عام ١٩٥٣ ، أي في نفس السنة التي أمكن لجريدة الاستشراف الأدبية أن تظهر من جديد ، في اصدار المجلة الاعلامية لمعهد أبحاث الشرق :

Mitteilungen des Instituts für Orientforschung

نشر في مجلده الأول مقالات كتب تذكري قدم الى ريشارد هارتمان بمناسبة بلوغه السبعين . وعلى صفحة الاهداء كتب مساعدهو يشكرونه على التشجيع الشخصي والعلمي الذي قدمه لهم . ويتضح تقدير أعمال هارتمان ومنجزاته من مؤلف تذكري آخر ظهر قبل ذلك بالمناسبة نفسها . . . وتعتبر وحدة الموضوعات التي عولجت فيه تقديراً خاصاً لانجاح أبحاث المحتفى به .

ترجمة : محمد علي حشيشو

١٤) شير هنا الى سحين أساسين فقط . يقدم كل منهما - من وجهة نظر مختلفة - تمناً لجميع الدراسات حول التصوف الاسلامي : هيلموت ريتز . بحر النفس - الإنسان والعالم والله في قصص فريد الدين العطار (بالألمانية) . وفريترز ماير : فوائح الجمال وفوائح البطلان لتبسم الدين الكبرى . عرض لتبصير صوفية في الاسلام - هو حوالي عام ١٧٠٠ ميلادي (بالألمانية) .

Helmut Ritter, Das Meer der Seele - Mensch, Welt und Gott in den Geschichten des Fariduddin 'Attar. Leiden Brill 1955

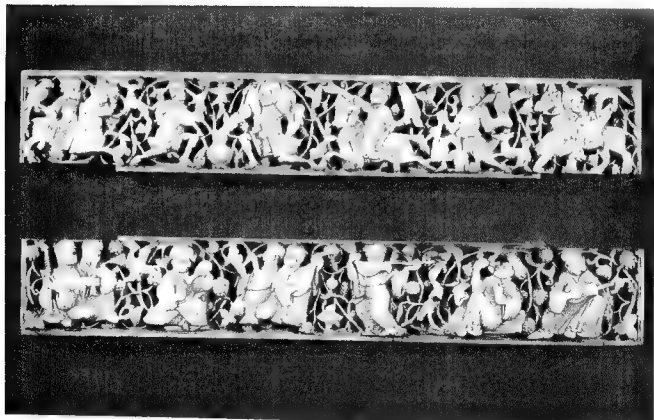
Fritz Meier: Die Fawā'id al-qamāl wa-l-fawā'id al-ḡalāl des Naḡm addin al-Kubrā: eine Darstellung mystischer Erfahrungen im Islam aus der Zeit um 1300 n. Chr. Wiesbaden Steiner 1957

Jahrbuch der Akademie der Wissenschaften in Göttingen 1965 (١)
S. 74-92

Heinz H. Giesecke
Richard Hartmann Bibliographie - Festgabe zum 70. Geburtstag. (٢)
Leipzig, Harrassowitz 1951

(٣)
Nachträge zur Richard Hartmann Bibliographie anlässlich seines 80. Geburtstages am 8. Juni 1961: Mitteilungen des Instituts für Orientalforschung Band IX, S. 139-143

قطعة موييليا ، مصر . القرن الحادي عشر - الثاني عشر ، من الملاج .



مفكرة ثقافية

والمعرض الذي نشر اليه هنا يقدم نتائج الحفريات في هذه المدينة القديمة . وقد أقيم أولاً عام ١٩٨٠ في ميونخ ثم كريفلد ، وهو الآن في مدينة سنستر (مقاطعة فستفاليا) . ويعود الفضل في ذلك الى هيئة الآثار بسوريا التي تقاسمت مع الهيئات الأجنبية التي قامت بالحفريات الآثار التي تم العثور عليها . وهكذا انتقلت مجموعة المتحف المذكورة من الفرك الى متحف برلين ، وتشمل هذه المتحف مجموعة من الأواني والأدوات والشخص وأدوات الزينة وغير ذلك .

يعتبر اكتشاف مدينة «حوبة كبيرة» من أهم إنجازات حفريات الآثار في الشرق . وتقع «حوبة كبيرة» شرق مدينة حلب ، بالقرب من نهر الفرك بسوريا . وتدخل هذه الانجازات ضمن جهود جمعية الشرق الألمانية .

وقد سبق وعرضت عائلة الآثار المعروفة أيضاً واشترى ومنجز لهذه الحفريات في كتيب وكالوج وضعته لذلك بعنوان «حوبة كبيرة» ، مدينة قبل خمسة آلاف سنة .



لقطة من قمة تل «حوبة كبيرة» على منطقة الحفريات ، ومعسكر بعثة الآثار ، وولدي الفرك جنوباً ، ويرتد المنظر في منطقة الحفريات من اليمين الى اليسار مع غرف الوش ، وجدار القلعة الداخلي ، والجدار المحيط بالشر ويحواه فرن الفخار (أواني التناثر والغرف) ثم جدار القلعة الخارجي .

لما مدينة «حوية كبيرة» فقد كانت مدينة محصنة قبل نحو أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، وكانت مركزاً رئيسياً للتجارة ، وتعتبر من بين الأقاليم الحضارية الهامة في غرب آسيا . وقد أمكن عن طريق الدراسات المقارنة للمعمار والآثار التي وجدت في منطقة ما بين النهرين التأسيس لحضارة هذه المدينة القديمة .

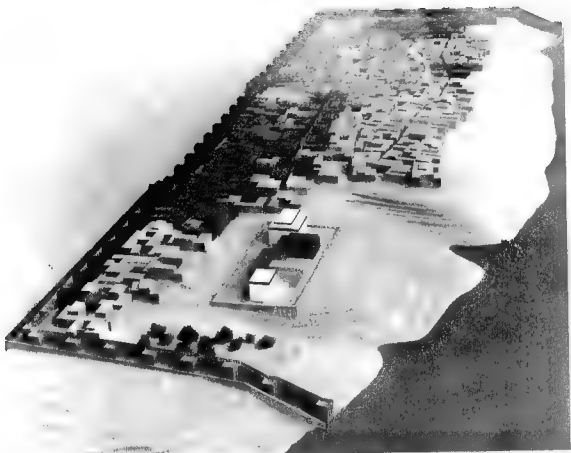
«لورستان . فنون البرونز في عصور ما قبل التاريخ في إيران» -
ينظم هذا المعرض متحف التاريخ القديم ميونخ (متحف الدولة لمصور ما قبل التاريخ ولقصر التاريخ) . وقد اعد المأملون بالمتحف كالأوجاً بالمعروضات ييسر على الزائر التعرف من خلاله على تحف للمعرض .

ولا جدال في أن فنون ما قبل التاريخ في إيران ما زالت مجهولة الى مدى بعيد بالمقارنة بفنون عصور التاريخ التي تحظى منذ زمن طويل باهتمام كبير . وقد كرس البروفسور لويس فاندن برجه الأستاذ بجامعة جنيف والمشرّف على جناح «لورستان» بمتاحف الفن والتاريخ في بروسيل ، كرس جهوده لاكتشاف هذه الفنون وتقديمها واليه يعود الفضل في عقد هذا المعرض هذا العام بميونيخ .

منذ أن عشر بعض فلاحي لورستان خلال حراثة أراضيهم عام ١٩٢٨ على بعض التحف البرونزية ، منذ ذلك يختلف علماء الآثار على مصدر هذه التحف وعلى تاريخها ، على الرغم من الشبهة التي تحظى بها الآن .

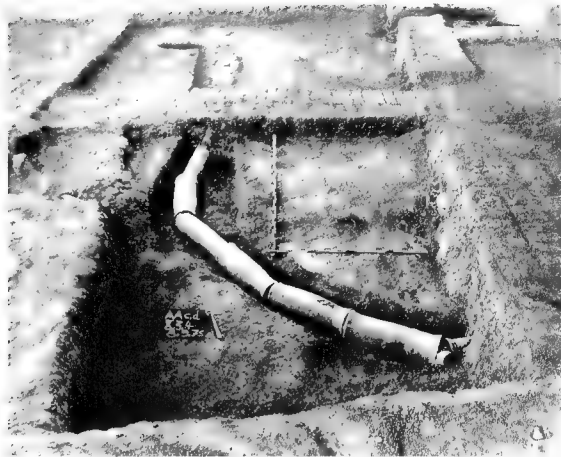


قائمة عمل مجهرة على الأرجح بمعدلات صناعة الفخار .



نموذج لجنوب مدينة «حوية كبيرة» مقياس ١ إلى ١٤٠٠ . من تصميم فيدو لودفيج وتنفيذ فرنانز إيرله .
شخص نسائية من الفخار («حوية كبيرة») .



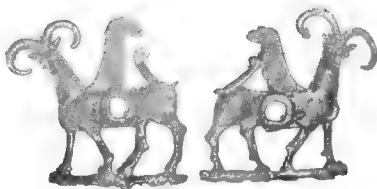


مأسورة صرف من الفخار في سبجى منطى بالجعر .

كان أعظم نجاح في تاريخ معارض الآثار في الستين الأخيرة من نصيب معرض «توت عنخ آمون» . وقد قدم هذا المعرض في برلين وكولونيا ومينخ ومانوفر ومامبورج . وأفردت له جميع الجلات للمصورة أعداداً خاصة بحيث تستطيع القول أنه قد دخل بصورة أو أخرى جميع المنازل في ألمانيا . بل أنه كان لفترة طويلة شافل للشه . فقد طبعت دور النشر العديد من الكتب والكراسات للمصورة والمجوزة بالرسوم الايضاحية لتقديم هذه الفنون القديمة بطريقة جذابة تناسب جميع الأعمار . ولا إنكار في أن المعرض كان فرصة تجارية فريدة للكثير من دور النشر .

تقع لورستان غرب إيران في منطقة السهل العالي على الحدود العراقية ، وتحدها خوزستان جنوباً وهمدان شرقاً وكرمشاه شرقاً . منذ فترة غير بعيدة كان سكان لورستان من البدو الرحل . ومن المرجح أنهم قد حملوا معهم هذه الآثار البرونزية وهم في طريقهم الى منطقة السهل المرتفع حيث كانوا يقيمون في بعض البقاع المنفرقة وحيث وجد القسم الأكبر من هذه الآثار البرونزية . ومن المرجح أن هذه العملات والتحف البرونزية قد صنعت في الألف الثانية قبل الميلاد . ونحن نعلم أن فنون لورستان الأخرى تعود الى صود تالية (الى القرون الأولى بعد الميلاد) .

لورستان



١) مشابه على هيئة جدیان (جمع : جدی) منمنمة .



٢) أساور (جمع سورة من البرونز)



٣) أقطال (أوعية) بمماسك .



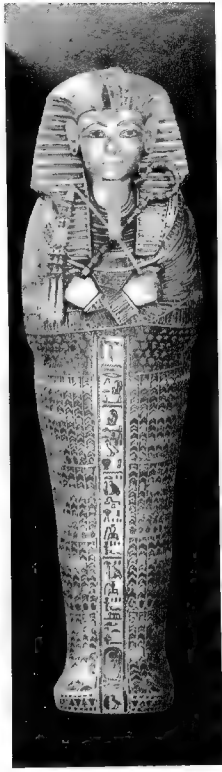
هورد كارتر مع أحد العمال خلال فحص تابوت توت عنخ آمون .

ويرلين وهيلدزهايم . وحتى مطلع عام ١٩٨٢ ستظل هذه التحف ممرضة بكونها . ويشمل هذا المعرض تحفا تعود إلى خمسة آلاف عام قبل الميلاد وتمتد إلى القرن التاسع بعد الميلاد . وقد اختيرت هذه التحف من بين الآثار التي عثر عليها حديثاً في الصين الشعبية .

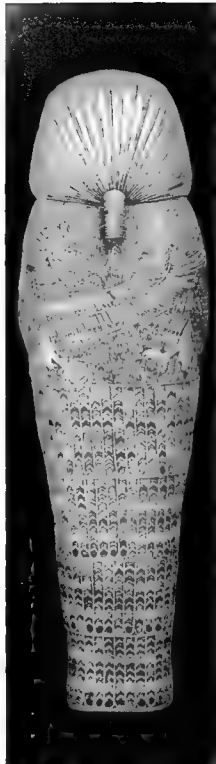
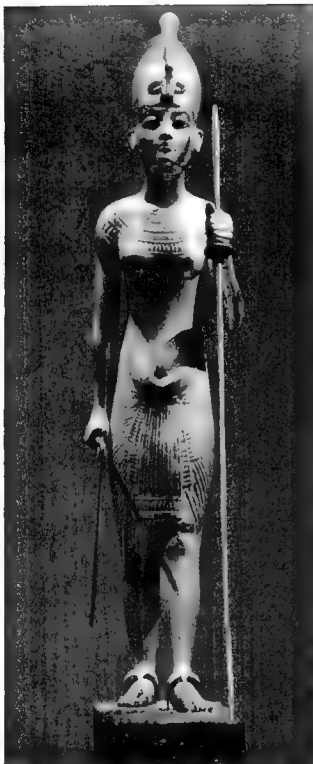
ولعل أروع هذه التحف أو على الأقل أكثرها أهمية هي تلك الآثار التي وجدت في قبر القصر كين شيونج (٢٥٩ - ٢١٠ قبل الميلاد) وتختار من بينها نموذجاً لرأس من الفخار في حجم الرأس الطبيعي للإنسان .

ولمنا لا ننسى في هذا المضمار الإشارة إلى كتالوج المعرض الذي أعدته دار نشر «فيليب فون سورن» والذي اقتناه معظم الزائرين . ومن المعروف أن دخل المعرض قد خصص لأعمال الآثار في مصر ، من أجل تدعيم المتاحف وتجديدها وتحديثها . ولعل «توت عنخ آمون» في مماته يساهم هكذا في عمل نافع أكثر مما ساهم في حياته القصيرة . هكذا يقول مدير المتحف المصري بيرلين في معرض تقديمه لمتحف معرض «توت عنخ آمون» .

«كنوز الفن الصيني» . عرضت تحف هذا المعرض في زيورخ



توت عنخ آمون ، توابيت الاحشاء ، متحف الآثار المصرية ، القاهرة .



تمثال الملك منتحياً فوق نبد . متحف الآثار المصرية - القاهرة .

◀ قناع توت حتف آمون الذهبي . من معرض توت حتف آمون في ألمانيا ١٩٨٠ / ١٩٨١ .

رأس مقاتل . نحو عام ٢١٠ - ٢٢٠ قبل الميلاد . متحف كوين ليتونج ، الصين . من معرض «تحت من الصين» زيورخ وبرلين وميلان وهايكولونيا . ١٩٨٠/١٩٨١ .



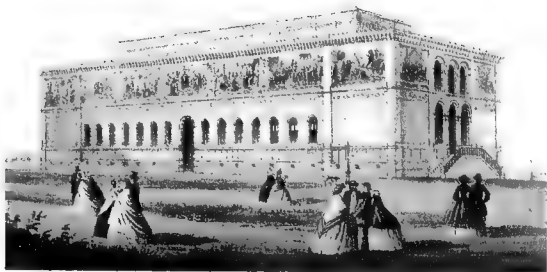




يوهان جيورج فون ديليس ، نظرة على روما ، ١٨١٨ ، جاليري شك ، ميونخ .

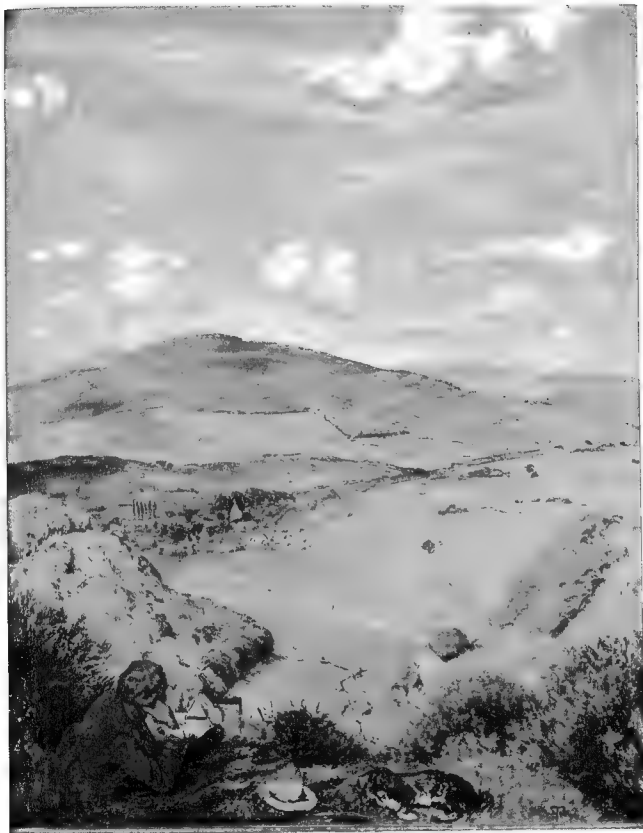
متحف الصور الزيتية القديم بميونخ ، الجانب الجنوبي والشرقي - طبع على الحجر ، دار نشر الفريد مايرل - درسدن نحو عام ١٨٦٠ (محموط بمتحف مدينة ميونخ) .

دمر هذا المبنى خلال الحرب العالمية الثانية - وقد شيد بين عامي ١٨٤٦ و ١٨٥٤ بواسطة المهندس أوجست هون فويت ، وموله الملك لودفيج الأول من ألقائه الخاصة . أما رسوم الحائط التي تحيط بأعلى المبنى كسريط فقد نفذها فريدريش كريستوف نيلسون وفقاً لتصميمات من وضع فيلهلم فون كوباخج . والهدف منها إبراز ازدهار الفنون ورعايتها في تلك الحقبة .

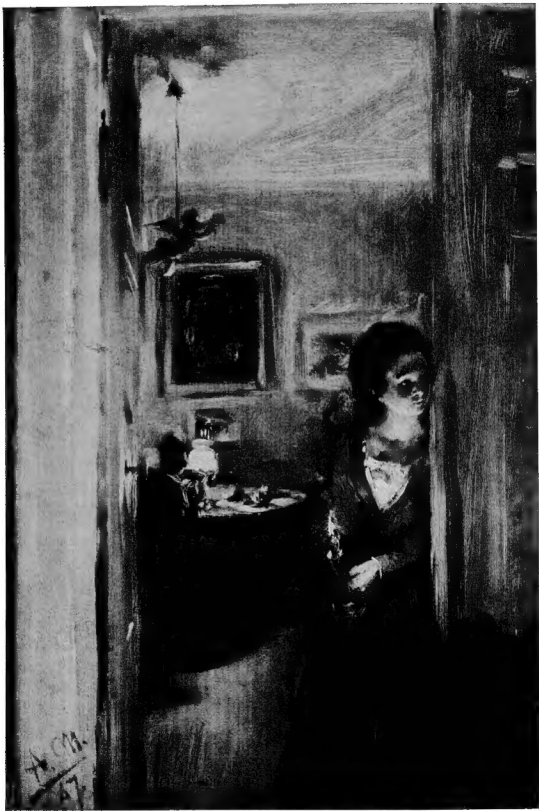


متحف الصور الزيتية الجديد بمونتج .





هانز بولدري ، طبيعة زيت على كتان . متحف الصور الزيتية الجديد ، ميونخ .



ادولف فون منسل ، حجرة الميشقة مع شقيقة منسل . جزء من لوحة زيتية ، زيت على ورق (١٩٠٨) .



هاب جريز هابر (١٩٠٩ - ١٩٨١)

الطباعة فن يحتاج الى الشباب المتجدد . فالطباعة لون من المفاخرة . وبهذا المعنى فكل لوحة مطبوعة «مخاطرة» . في عملية الطباعة تجتمع ديناميكية هائلة ، تجتمع الصدقة مع الهدف . فالطباعة خبرة خاصة ، هي هواية الصنع والانتاج مع ضبط النفس ومراجعتها . هي نوع من التوتر والغريزة والقدرة التعبيرية والريكيالية التي يهدد الكمبيوتر بسلبنا اياها . الطباعة فن شبابي على الدوام ، فلنحذر أن نسلب منا !

بسم الله
Helf dem ☾
Roten Halbmond!



